ليتوانيا والحروب الصليبية الشمالية (١٢٣٦ – ١٣٨٧م)

محمد مرسي عبد الله هديه

مقدمة:

إن كان هناك من باحث عن الصورة الأمثل للعرقية؛ فإن منطقة بحر البلطيق تعطي مثالًا متكاملًا لهذه الصورة، فقد ضمت هذه المنطقة العديد من الأعراق والأجناس، وعلى رأسها السلاف والقبائل المتفرعة عنهم، وأيضًا قبائل الساموجيتيين Samogitians والفارانجيين Varangians، وغير ذلك من قبائل البلطيق المتعددة، الأمر الذي تسبب في انتشار الحروب العرقية بين تلك القبائل الوثنية، وتعد ليتوانيا صورة مصغرة لهذه العرقية، فهي دولة أخذت في الظهور منذ القرن الحادي عشر الميلادي، وذلك من خضم الحروب العرقية، إلى أنتهي الأمر بعقد اتفاق عام ١٢١٩م بين تلك القبائل على الوحدة والعمل على إنشاء نظام حكم مركزي، يعمل على خدمة جميع القبائل بشكل متساوي، وأثناء ذلك واجهت هذه الدولة الوليدة شبح الانتهاء، عندما ازدادت الأطماع الصليبية وخاصة من قبل الإمبراطورية الرومانية المقدسة في منطقة البلطيق، بداعي نشر المسيحية والقضاء على الوثنية في الظاهر، وفي الباطن من أجل السيطرة على هذه المنطقة لما تمثله من قوة تجارية على وجه الخصوص، ومن ثم فقد غدا من الضروري دراسة حلقة من حلقات تاريخ هذه الدولة، والمتمثلة في فترة قيادتها للمعسكر الوثني ضد المعسكر الصليبي (المسيحي)، خاصة وأنها نجحت بالفعل وقف تمدد الإمبراطورية الرومانية المقدسة والقوي المسيحية داخل منطقة البلطيق خلال تلك الفترة، وعلاوة على ذلك في نجحت في التمدد ناحية الشرق، حيث واجهت في سبيل ذلك مخاطر قوي عظمى في الشرق، على رأسها قوة المغول والروس، وإنشاء علاقات دبلوماسية مع القوى المسيحية المختلفة، الكاثوليكية في الغرب والأرثوذكسية في الشرق، دون السماح بفرض المسيحية على الشعب الليتواني، الذي ظل رافضًا لتقبلها من كلا المعسكرين، إلا عندما رأي في نهاية الأمر أن المصلحة تقتضي ذلك، عندما قبل المسيحية بعد عام ١٣٨٧م طواعية ودون إجبار من الصليبيين، وذلك عبر الوحدة مع بولندا ودخول جوجيلا دوق ليتوانيا في المسيحية على المذهب الكاثوليكي، وهو ما يخدم الشعب الليتواني ويحميه من هجمة شاملة من قبل الألمان التيوتون، وذلك عندما يتخذون صف البابوية والقوى المسيحية الغربية، حيث ظل التيوتون يتمسكون بالسيطرة على تلك الأرض رغم تحول ليتوانيا وشعبها إلى المسيحية.

وبالتالي فإن الأمر على هذا النحو يعطى الفرصة لطرح كثير من التساؤلات حول العديد من القضايا، يأتي في مقدمتها، كيفية نشأة ليتوانيا؟ وحدوث الوحدة بين القبائل الليتوانية بتكوينها العرقي المختلف؟، طبيعة الظروف التي نشأ فيها النظام الملكي داخل ليتوانيا في عهد ميندوجاس (١٢٥٣ – ١٢٦٣م) ؟، وأسباب عدم استمرار هذا النظام؟، كيفية نجاح حكام ليتوانيا في السيطرة على الوضع السياسي الداخلي رغم تعدد القبائل؟؛ في الوقت الذي نجحوا فيه في توسيع أملاك

ليتوانيا على حساب قوي مثل المغول والروس، وهي أكبر عددً وأكثر قوة من ليتوانيا، وفي الوقت نفسه كيفية عدم استغراق هذا الأمر لوقت طويل؟، للدرجة التي دفعت أحد المؤرخين بالتعبير عن ذلك بقوله أنها تعد "قفزة نقلت هذه الأمة الصغيرة إلى أعلى مسارح التاريخ"[١]، وعلاوة على ذلك كيفية نجاح حكام ليتوانيا في إقامة علاقات دبلوماسية عبر التحالفات تارة أو المصاهرات السياسية تارة أخرى مع كل من المعسكرين الكاثوليكي الغربي والأرثوذكسي الشرقي؟، وأخيرًا الأسباب التي أخرت دخول الشعب الليتواني في المسيحية حتى عام ١٣٨٧م؟، وهل السبب يعود لتجذر الوثنية بين صفوف هذه الشعوب؟، أم بسبب الطبيعة الغليظة للمبشرين بالمسيحية في كثير من الأحيان؟، أم الحروب الصليبية ضد ليتوانيا؟، وكذلك طبيعة الحروب الصليبية الشمالية وأسبابها ودور البابوية والقوي المسيحية فيها؟، وغير ذلك من القضايا والتساؤلات، التي سيكون البحث مجالًا لمناقشتها والرد عليها، من خلال عدد من العناصر، التي تتناول نشأة ليتوانيا، وكذلك طبيعة الحروب الصليبية الشمالية وأسبابها وبداياتها، وأيضًا دور ليتوانيا في الحروب الصليبية خلال عهد أسرة ميندوجاس (١٢٣٦ – ١٢٨٥م)، وأخيرًا تاريخ ليتوانيا ودورها في الحروب الصليبية في عهد أسرة جيديمناس خلال الفترة (١٢٨٥ – ١٣٨٧م).

أولًا: نشأة ليتوانيا [٢]:

ليتوانيا هي دوقية كبرى تأسست في القرن الثالث عشر الميلادي، تشكلت إلى حد كبير داخل المنطقة الواقعة بين بولندا ونهر الدنيبر الذي يصب في البحر الأسود، ثم توسعت داخل المنطقة الواقعة بين بحر البلطيق والبحر الأسود، وقد تغيرت حدود ليتوانيا وجيرانها بدءً من القرن الحادي عشر الميلادي وحتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، نتيجة للظروف السياسية التي عاشتها ويأتي على رأسها الحرب مع الغرب الأوروبي والشرق الروسي على حد سواء (مع القوى المسيحية الغربية والشرقية على حدٍ سواء)، وخلال فترة البحث (١٢٣٦ – ١٣٨٧) تمثلت حدود ليتوانيا في الشمال جمهورية نوفجورود (Novgorod) الروسية ومن الشمال الغربي دوقية ليفونيا (Livonia) الكبرى على بحر البلطيق، ومن الغرب دوقية بروسيا (Prussia) ومن الشرق مناطق نفوذ المغول (خانات القبيلة الذهبية) والبحر الأسود ومن الجنوب بولندا[٣].

وهى بذلك تتوسط قارة أوروبا وتقع في نقطة المركز منها، حيث كانت بمثابة مفترق الطريق بين الشرق والغرب، فكان يمر بها الألمان وهم في طريقهم نحو الشرق حيث أراضي الروس، وفي المقابل كان يمر بها الروس وهم في طريقهم إلى الغرب نحو أراضي الألمان، وعلى الرغم من كونها نقطة التلاقي بين أجزاء أوربا من ناحية، وكانت مدينة "كوناس Kaunas" وهى إحدى أهم مدن ليتوانيا التجارية أحد أعضاء مدن عصبة الهانزه "Hansa City" من ناحية أخري[٤]؛ إلا أن ليتوانيا في كثير من الأحيان كانت أقرب إلى الشرق بدلاً عن كونها تمثل جزءً من وسط أوربا، ويرجع

ذلك لسيطرة الوضع الجيوسياسي بدلاً عن الموقع الجغرافي على موقف ليتوانيا داخل قارة أوربا(٥).

وعلى الرغم من ذلك فإن ليتوانيا من الناحية الحضارية والثقافية كانت تختلف عن أوروبا الشرقية، فهي تنتمي إلى أوروبا الوسطى، حيث محيط الحضارة الغربية، وهي في ذلك مثل غيرها من بلدان أوروبا الوسطى، كل من : بولندا، والتشيك، وهنغاريا، كان يغلب عليها طابع العصور الوسطى الغربية، من حيث المنازل الفردية للفلاحين، بدلاً عن المجمعات القروية في شرق أوروبا، وكذلك سيطرة المجتمعات المدنية من النبلاء بدلاً عن المركزية الشرقية والاستبداد، وأخيراً فإنه بعد نشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي داخل ربوع ليتوانيا فقد هيمنت الثقافة الغربية الكاثوليكية بدلاً عن الثقافة الشرقية الأرثوذكسية؛ لذا ونتيجة للموقع الجغرافي لليتوانيا وكذلك تأثرها بالحارة الغربية كانت هناك محاولات عدة لجمع الكاثوليك والأرثوذكس معاً من خلال تأسيس كنيسة توحد المسيحيين شرقاً وغرباً، وهو ما عرف بحركة (البابويين) "Uniates" وهذه الحركة دفعت للحديث حول ليتوانيا كحلقة وصل بين أوروبا الوسطى الرومانية وأوروبا الشرقية البيزنطية(٦).

ويعد شعب الليتز (Liths) هو المكون الرئيسي لسكان ليتوانيا، وهو ينتمي لمجموعات أمم البلطيق الهندو- أوروبية، التي تختلف كثيراً عن الشعوب الجرمانية التي استقرت على ضفاف هذا البحر، وينقسم إلى قبيلتين كبيرتين هما: قبيلة الزيماسيا Zemaiciai أو (الساموجيتينيين) وقبيلة الأوكستايسيا (Aukstaiciai)، هذا وقد استقرت شعوب الليتز في منطقة الغابات والمستنقعات بحلول عام١٠٠٠م قبل الميلاد، وهي المنطقة الواقعة بين نهري نيمين (Niemen) ونيريس (Neris)، وهي تصب داخل بحر البلطيق من الجهة الجنوبية الشرقية(٧).

وعلى أية حال فإن اسم ليتوانيا تم ذكره في للمرة الأولى في السجلات المكتوبة بدءً من ٩ مارس عام ١٠٠٩م، وذلك من خلال حولية ديركودلينبورج "Chronicon Quedlenburgense"، التي كتبت خلال الفترة من عام ١٠٠٨م حتى عام ١٠٣٠م، وقد أشارت تلك الحولية إلى ليتوانيا باسم (ليتوا Litua) ؛ وهي بصدد الحديث عن أول بعثة تبشيرية معمودية من قبل البابوية إلى ليتوانيا برئاسة القديس الأسقف برونو أف كيرفورت (Bruno of Querfurt) الذي قتل عام ١٠٠٩م على يد دوق ليتوانيا نتيمر (Netimer)(٨).

وعلى الرغم من أن القبائل الليتوانية لها جذور قديمة، فهي شعوب ذات أصل أسيوي، هاجرت إلى شرق أوروبا ثم استقرت في وسط القارة على الضفة الجنوبية الشرقية لبحر البلطيق، وظهرت وتباينت بعيداً عن بقية شعوب بحر البلطيق قبل هذا العام (١٠٠٩م) بعدة قرون، ويرجع ذلك لاختلاط الشعبين الليتواني واللاتفي في شعب واحد واختلاط لغتهما؛ نتيجة لتداخل المناطق التي استقر بداخلها الشعبين على بحر البلطيق؛ ومع مطلع القرن السابع الميلادي بدأ الشعبان

ينفصلان تدريجياً، وبدأت اللغة الليتوانية تستقل عن اللغة اللاتفية شئياً فشيئاً، وبالرغم من ذلك فقد بقيت اللغة الليتوانية تستخدم على نطاق ضيق، واقتصر استخدامها كلغة محلية، ولم يكن لها وجود في الدوائر الرسمية، ولم يتغير هذا الوضع إلا خلال القرن الخامس عشر الميلادي(٩).

وفي الواقع أن أكثر الفرضيات المقبولة على نطاق واسع هي أن اسم ليتوانيا مشتق من الاسم المختصر لنهر ليتوكا "Lietauka" وهو المكان الذي استقرت فيه القبائل الليتوانية في بداية الأمر، ثم أخذت تلك القبائل في التوسع شرقاً وشمالاً حتى سيطرت على أجزاء كبيرة من أراضي روسيا وكذلك أوكرانيا، وترتب على ذلك أن ضمت دوقية ليتوانيا الكبرى عدداً من القبائل بخلاف القبائل الليتوانية، مثل قبائل الساموجيتيين والسيلونيين Selonians(١٠).

ثانيًا : الحروب الصليبية الشمالية : المفهوم – الأسباب – البدايات:

يقصد بالحروب الصليبية الشمالية تلك الحروب التي دارت رحاها داخل المناطق المطلة على بحر البلطيق، وأشهرها بالطبع الحروب التي خاضها المعسكر الكاثوليكي ضد المعسكر الوثني والأرثوذكسي، وهي تعد امتداداً للحروب الصليبية في الشرق، وذلك زمن الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ – ١١٤٨م)، تلك الفترة التي تعرضت فيها الحركة الصليبية في الشرق الإسلامي إلى الضعف والفتور، ولم تحقق من النتائج مثلما حققت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ – ١١٠٨م)؛ وكل ذلك نتيجة لبدء الصحوة الإسلامية، وبالتالي فقد بحث الغرب الأوروبي وعلى رأسه البابوية عن صحوة جديدة للمشروع الصليبي، فكانت منطقة البلطيق هي الأرض الخصبة التي كانت تنادي الصليبيين لاستثمار الروح الصليبية بداخلها، وهي بذلك شغلت الحيز التاريخي الممتد من منتصف القرن الثاني عشر وحتى نهاية القرن الخامس عشر الميلاديين(١١).

وفي الواقع فإن الحركة الصليبية التي اشتعلت على ضفاف البلطيق غلفها نوع من الصراع والتنافس بين الكاثوليكية الغربية والأرثوذكسية الشرقية حول مناطق التمدد والنفوذ على حساب الأراضي التي يقطنها الوثنيون، وفي سياق ذلك يذكر (هـ. و. ديفز H. W. C. Davis) وهو بصدد الحديث عن الحركة الصليبية حول بحر البلطيق إذ يقول :

> *"إن الحروب المجزية هي حروب الحدود التي كانت تشن ضد القبائل المتفرقة في شرق أوربا ... ومثل تلك الحروب هي التي كانت شائعة الحدوث، شنتها الدول التي ساعدها موقعها الجغرافي على تحقيق هذا الغرض، وأحياناً أخرى شنها مهاجرون نزحوا من ديارهم بحثاً وراء موطن جديد. لقد كان لتعاليم الكنيسة الفضل في تحويل نسبة كبيرة من حروب الحدود إلى حرب صليبية لنشر المسيحية أوللقضاء على غير المسيحيين ... وكثيراً ما كان ينتحل الباعث الديني*

بقصد إلقاء قناع خفيف من الاحترام على العمليات الحربية، ولولا هذا القناع لكان من العسير تبرير الحرب[١٢]".

وهو بذلك ينعت الحروب الصليبية بصفة عامة وتلك التي اشتعلت في منطقة البلطيق بصفة خاصة بأنها حرب مربحة، وأن قوي الغرب الأوروبي وفي مقدمتها البابوية ودول الحدود - ومنها ألمانيا والسويد وروسيا- الملاصقة لمناطق الوثنيين قد استغلت تلك الحرب لتحقيق أكبر قدر من المكاسب، مستعينة في ذلك بالعامل الديني، الذي غلف تلك الحرب وبررها.

هذا وقد تنوعت الحروب الصليبية الشمالية، التي دارت رحاها في شرق وجنوب بحر البلطيق، ما بين حروب من الكاثوليك الغربيين ضد الوثنيين في تلك المناطة وحروب من الأرثوذكس الشرقيين ضد القبائل الوثنية، وأخيراً حروب بين كل من الكاثوليك والأرثوذكس حول السيطرة على تلك المنطقة، وقد دار جدالاً بين المؤرخين حول وصف تلك الحروب بالحروب الصليبية (The Crusades) وإدراجها ضمن سلسلة الحملات الصليبية التي شغلت تاريخ تلك الفترة، إلا أنه ومع نهاية المطاف أجمع عدد كبير من المؤرخين على أنها تندرج ضمن نطاق الحركة الصليبية، وبخاصة إذا ما قارنا بين أهدافها وأهداف الحملات الصليبية التي خرجت ضد الشرق، من حيث إعادة هيمنة المسيحية الكاثوليكية في الشرق والغرب على حدٍ سواء، فالحملات التي خرجت ضد المسلمين والمسيحيين في الشرق حملت بين طياتها تلك الأهداف وتبنتها، خاصة وأن الكنيسة الغربية كانت تؤمن بأنها صاحبة المسيحية الحقة، وأن المسيحيين في الشرق وكنائسهم أدني درجة وأقل تحضراً من الكاثوليك الغربيين، وبالتالي فإن الحروب التي خرجت إلى شرق وجنوب بحر البلطيق تبنت تلك الأهداف، حيث عملت على نشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي والتخلص من الوثنيين، ويذكر عدد من المؤرخين أن مراسيم الباباوات المعاصرين لتلك الحروب خرجت جميعها لتؤكد على أنها حملات صليبية، ومنها مراسيم البابا ألكسندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١م) خلال عامي ١١٧١م، ١١٧٢م[١٣].

هذا ويذكر بعض المؤرخين أن نقطة بداية الحروب الصليبية الشمالية كانت عند دعوة البابا سلستين الثالث Celestine III (١١٩١-١١٩٨م) بمحاربة الوثنيين في حوض بحر البلطيق عام ١١٩٥م، وذلك على الرغم من أن الممالك الكاثوليكية في إسكندنافيا وبولندا والإمبراطورية الرومانية المقدسة قد بدأت الحرب المقدسة من أجل إخضاع جيرانهم الوثنيين في وقت سابق على إعلان البابا سلستين الثالث، وقد تعددت الشعوب غير المسيحية، التي خرجت ضدها تلك الحروب الصليبية، ويأتي في المقدمة قبائل السلاف الغربيين "The West Slavs" مثل الويندين "The Wends"، والصرب "Sorbs" والأبوتريتيين "Obotrites" وهؤلاء تم مهاجمتهم من قبل السكسون "Saxons" والدانيين "Danes" (الدنمركيين) والبولنديين "Poles"، وذلك بداية من الحملة الصليبية ضد السلاف الويندين عام ١١٤٧م، ثم حملة السويديين الصليبية الأولى ضد

فنلندا Finnland حوالي عام ١١٥٠م، ثم من قبل الدنمركيين في عام ١١٩١ و١٢٠٢م، ثم تافاستيا Tavastia في عام ١٢٤٩م خلال الحملة الصليبية السويدية الثانية، وكاريليا Karelia في ١٢٩٣م خلال الحملة الصليبية السويدية الثالثة، وشنت أيضًا الحروب الصليبية في منطقة البلطيق ضد الليفونيين Livonians والليتيين "Latgallians" والسيلونيين "Selonians" من قبل الألمان والدنمركيين والإيستونيين "Estonians" خلال الفترة (١١٩٣ – ١٢٢٧م)، وكذلك ضد شعوب الساموجيتيين "Semigallians" والكورونيين "Curonians" خلال الفترة (١٢١٩ – ١٢٩٠م)، ثم البروسيين Prussians خلال الفترة (١٢١٧ – ١٢٧٤م)، وأخيرًا الحرب الصليبية ضد ليتوانيا وساموجيتيا من قبل الألمان خلال الفترة من عام ١٢٣٦ وحتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي،(١٤).

وبالتالي وعقب مضي خمسون سنة على اندلاع الحملة الصليبية الأولى في الأراضي المقدسة، بدأت الحروب الصليبية الشمالية (البلطيقية) في عام ١١٤٧م بحملة الألمان والدنمركيين على السلاف الويندين، وهم أقرب القبائل السلافية لأراضيهم، وعلى الرغم من تبرير تلك الحملة دينيًا؛ إلا أن أكثر أسبابها كانت اقتصادية، حيث اعتمد اقتصاد الدنمركيين على وجه الخصوص بشكل أساسي على التجارة والإغارة خلال القرن الحادي عشر الميلادي، وخاصة الإغارة على بحر البلطيق، وبالتالي فإن التحدي الاقتصادي أمام الأمم المسيحية الغازية كان كبيرًا، وظهر حل هذه المعضلة عام ١١٤٧م، ففي القوت الذي طلبت فيه البابوية من النبلاء الدنمركيين والألمان وعموم نبلاء الشمال ضرورة المشاركة في حملة صليبية على الشرق الإسلامي، طلب هؤلاء النبلاء أن يقاتلوا الوثنيين في بحر البلطيق، امتثلت الكنيسة من أجل تحويل الوثنيين الويندين إلى المسيحية، في الوقت الذي بحث فيه النبلاء عن المكاسب الاقتصادية، وظهر ذلك جليًا أثناء التجهيز للحملة وخلال أحداثها، حيث ربطت الكنيسة موافقتها على خروج هذه الحملة بأن تكون بقوات كبيرة وتعمل على نشر المسيحية بين جميع الوثنيين أو إبادتهم عن بكرة أبيهم، وبالطبع فقد رأي النبلاء أن إبادة الوثنيين بهذا الشكل أو إجبارهم على ترك دينهم ودخول المسيحية عنوة سوف يؤثر على منافعهم الاقتصادية، التي يبحثون عنها من خلال السيطرة على تلك القبائل(١٥).

ومن ثم فإن الحملة انتهت إلى تظاهر الويندين بقبول الدخول في المسيحية، فبمجرد عودة الدنمركيين والألمان إلى ديارهم أنكر الويديون معموديتهم وعادوا إلى الوثنية من جديد، وقد حملت الكنيسة فشل الحملة في هدفها الرئيسي وهو نشر المسيحية بين الوثنيين على النبلاء الدنمركيين والألمان، ورأت أنه منذ الآن فصاعدًا يتوجب عليها السيطرة على تلك الحركة، وتنظيمها من أجل خدمة الأهداف الدينية للكنيسة، وليس خدمة الأهداف الاقتصادية للنبلاء، وهو ما تم مراعاته في الحملات الصليبية التي خرجت بعد ذلك إلى منطقة بحر البلطيق، وكان على رأس تحركات

الكنيسة من أجل تنفيذ ذلك هو الاستعانة بالمنظمات الرهبانية العسكرية حتى يتم تثبيت المسيحية على ضفاف بحر البلطيق، وفي مقدمتها منظمة إخوان السيف Sword brothers Knights[١٦] والفرسان التيوتون Teutonic Knights[١٧].

ونتيجة لذلك استحوذت المنظمات الرهبانية الدينية – إخوان السيف على وجه الخصوص- على الحروب الصليبية الشمالية، وتقاسمت مع الكنيسة غنائم تلك الحروب، وشملت الصفقة جميع الفتوحات المستقبلية، خاصة بعد تعثر خطط النبلاء من أجل تسخير تلك الحروب من أجل مصالحهم الاقتصادية، وأمام ذلك استعدت أيضًا الممالك والقبائل الوثنية المقيمة على بحر البلطيق، من أجل التصدي لمشاريع الكنيسة والمنظمات الرهبانية العسكرية والنبلاء الصليبية ضدهم، وأصبح الوضع العسكري بين الجانبين عبارة عن حملات صليبية من قبل المسيحيين على اختلاف فرقهم؛ وحملات مضادة من قبل الوثنيين على اختلاف ممالكهم وقبائلهم، خاصة عقب انتقال منظمة فرسان التيوتون للعمل في ميدان الحرب في بحر البلطيق، وتنفيذ مشاريعها المتمثلة في خدمة البابوية ونشر المسيحية الكاثوليكية بين الوثنيين، وكذلك خدمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة عبر توسيع أملاكها ناحية الشرق في حوض البلطيق، والأهم من ذلك الاستحواذ على الدور الرئيسي للحركة الصليبية في حوض البلطيق، وكذلك احتواء أدوار القوي السياسية والمنظمات الدينية الأخرى، ومن ذلك الاستحواذ على أراضي وقلعة منظمة فرسان دوبريزي Doprezy، وذلك من خلال المرسوم البابوي الصادر في ١٩ أبريل ١٢٣٥م، وبنفس الطريقة استحوذ التيوتون على ما تبقي من أملاك لمنظمة فرسان السيف في ليفونيا عام ١٢٣٧م، وذلك بعد أن تم القضاء على قوتها من قبل الليتوانيين في معركة سول Saule عام ١٢٣٦م، وهي البداية الحقيقية لدخول ليتوانيا في خضم الحركة الصليبية في بحر البلطيق[١٨].

ثالثًا : موقف ليتوانيا من الحروب الصليبية الشمالية عهد أسرة ميندوجاس (١٢٣٦ – ١٢٨٥م):

ظلت ليتوانيا عبارة عن مجموعات من القبائل المتفرقة طوال الفترة من بداية القرن الحادي عشر الميلادي - وهى الفترة التي شهدت ظهور أول ذكر لاسم ليتوانيا في السجلات عام ١٠٠٩م- وحتى عقد اتفاقية الوحدة بين القبائل الليتوانية في ڤولهانيا Volhynia عام ١٢١٩م، حيث يذكر بعض المؤرخين أن بداية القرن الثالث عشر الميلادي تعد نهاية لعصور ما قبل التاريخ في ليتوانيا، وطوال تلك الفترة ظلت ليتوانيا متمسكة بالديانات الوثنية، بل وتقود المعسكر الوثني في بحر البلطيق[١٩].

ففي عام ١٢١٩م اجتمعت القبائل الليتوانية تحت راية واحدة، وقام إحدى وعشرون دوقًا بعقد اتفاقية للسلام والتحالف مع مملكة جاليسيا-ڤولهانيا Galicia–Volhynia، وتأتي تلك الاتفاقية دليلاً على اتجاه ممالك البلطيق الوثنية نحو الوحدة لمواجهة المعسكر المسيحي الغربي، خاصة بعد اقتراب خطر المنظمات العسكرية الدينية مثل فرسان السيف والتيوتون إلى

شواطئ بحر البلطيق، الأمر الذي ترتب عليه ظهور دوقية ليتوانيا الكبري؛ خاصة بعد نجاح الأخيرة في السيطرة على أراضي دوقية روثينيا السوداء (Black Ruthenia) وبولاتسك (Polatsk) ومينسك (Minsk)، وغيرها من الأراضي التي تقع على الشاطئ الجنوبي الشرقي لبحر البلطيق، التي أصابها الضعف وخاصة بعد ضعف دولة كييف (Kievan) الروسية، عقب ضغط قبائل المغول عليها[٢٠].

وفي الواقع كان للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت داخل ليتوانيا دورًا في التوجه نحو الوحدة ونحو خلق نظام مركزي موحد وقوي للتصدي للأخطار الخارجية التي تهدد الأمة الليتوانية، ومن ثم كان شيوع نظام الملكية الخاصة للأراضي تمهيدًا لظهور النظام الإقطاعي داخل ليتواينا خلال القرن الثالث عشر الميلادي، ولما كان هذا النظام يعطي حق الانتفاع بالأرض للابن الكبردون غيره من الأبناء؛ سمح للدوقات بدمج أملاكهم سعيًا وراء الوحدة، هذا بالإضافة لما ظهر من أطماع لدي القبائل الليتوانية في الأراضي الروسية الغربية، التي أنهكتها الهجمات المغولية، وبالتالي فإن أمر الوحدة سوف يمكن الدوقات الليتوانيين من تجهيز قوة عسكرية كبيرة؛ تكفي للسيطرة على أراضي روسيا المجاورة لهم، الأمر الذي شجعهم على غزو أغلب الممالك المجاورة لهم، فمنذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي وحتى بداية عهد ميندوجاس Mindaugas عام ١٢٣٦م شنت القبائل الليتوانية ما يقرب من ٤٣ حملة عسكرية، كان أهمها ٢٢ حملة ضد ليفونيا و١٤ حملة ضد روسيا الغربية (المسكوفية) و٤ حملات ضد بولندا، ومن ثم أصبح هناك أراضي جديدة أضيفت إلى أراضي ليتوانيا، وأصبحت الحاجة ماسة لوجود قوة مركزية قوية وموحدة[٢١].

وبالرغم من أن هناك بعض المؤرخين يرى أن عملية وحدة ليتوانيا تلك تعود إلى بداية القرن الثالث عشر الميلادي، حيث تشير بعض الأدلة إلى أن الليتوانيين بدأوا في دمج قواتهم في فجر القرن الثالث عشر، ففي عام ١٢٠٧ م تم تجميع الجيش الليتواني من جميع أنحاء ليتوانيا للتصدي لخطر فرسان السيف الألمان، الذي بدأ في الأفق إلى جوارهم في بروسيا، ومن خلال الاتفاقية التي عقدت بين ليتوانيا ومملكة نوفغورود الروسية عام ١٢١٢م، لإنهاء الحرب وترسيم الحدود بين الدولتين خلال عهد دوق ليتوانيا داوجيروت Daugirutis؛ يتضح أن دوقية ليتوانيا كانت عبارة عن اتحاد لمساحات شاسعة من الأراضي؛ إلا أن هناك العديد من المؤرخين يرون أن توحيد ليتوانيا وظهور دوقية ليتوانيا الكبرى يرتبط بتوقيع اتفاقية ڤولهانيا عام ١٢١٩م بين دوقات وقبائل ليتوانيا وعددهم ٢١ دوق؛ وأن أول دليل قاطع على توحيد القبائل الليتوانية مع القبائل المجاورة يتمثل في المعاهدة المبرمة بينهم وبين اتحاد جاليسيا-فولهينيا –Galicia Volhynia عام ١٢١٩م، ومن بين أشهر الدوقات الليتوانيين الموقعين على المعاهدة الدوق الأكبر

كان زيڤينبوداس Živinbudas وميندوجاس وشقيقه دوسبرونجاس Dausprungas ودوجوتاس Daujotas وشقيقه فيليكيلا Vilikaila[٢٢].

وتعود أهمية المعاهدة لعدة أسباب منها: أنها أظهرت وحدة وتعاون الدوقات الليتوانيين؛ وإن كانت تلك الوحدة ما زالت في مهدها، ولم ترق إلى وجود نظام حكم مركزي، يعتمد على جهاز إداري متسلسل داخل ليتوانيا، إلا أن الاتفاقية جذبت إليها العديد من القبائل والقوى من أجل الاتحاد مثل قبائل ساموجيتا Samogitia، وبالتالي فأن المعاهدة تعد وثيقة مهمة لعملية طويلة ومعقدة لتشكيل الدولة، وأن مشروع الوحدة بين القبائل في بداية القرن الثالث عشر الميلادي كان منقوصًا، ولم يصل لدرجة الوحدة التي تمت بتوقيع معاهدة فولهينيا عام ١٢١٩م، فقبل هذا العام استمرت غارات القبائل ضد بعضها البعض من أجل التوسع، فأتت تلك المعاهدة ليحل السلام محل الحرب، ويحل التفاهم محل الخلاف، من أجل مواجهة الأخطار الخارجية، وبالتالي نجد أن المعدل النسبي لغارات القبائل الليتوانية قد انخفض خلال الفترة من عام ١٢١٩م وحتى بداية عهد ميندوجاس عام ١٢٣٦م، - ربما يرجع ذلك لتوقيع المعاهدة-، وفي الواقع أن القبائل الليتوانية كانت مهددة بنشاط المنظمات الرهبانية العسكرية، وفي مقدمتها منظمة فرسان السيف الليفونيين ومنظمة فرسان التيوتون الألمان، التي أخذت على عاتقها مدفوعة من البابوية والقوي السياسية المسيحية مثل الإمبراطورية الرومانية المقدسة والسويد والدنمرك ضرورة فرض المسيحية على القبائل الوثنية في حوض بحر البلطيق، ومن ثم كانت الوحدة أمر ضروري لمواجهة تلك الحملات التي شكلت خطرًا كبيرًا على الأراضي الليتوانية[٢٣].

وبالتالي يعد ميندوجاس Mindaugas هو أول من حمل لقب الدوق الأكبر لليتوانيا (١٢٣٦ – ١٢٦٣م)، وذلك على الرغم من تأكيد بعض المؤرخين على أن ظهوردوقية ليتوانيا الكبرى يرتبط بعام ١٢١٩م عند توقيع اتفاقية فولهينيا؛ إلا أن وجود العديد من الدوقات داخل هذا الاتحاد على نفس الدرجة من القوة والسيطرة -وانشغالهم بالحرب مع الممالك المجاورة مثل روسيا وبولندا وليفونيا، خلال الفترة بين عامي (١٢١٩ – ١٢٣٦م)- قد خلق تنافسًا بين الجميع، ومنع ظهور شخصية القائد الواحد، التي تسيطر على كل ليتوانيا؛ إلى أن ظهر ميندوجاس كحاكم لجنوب ليتوانيا، وبالتحديد على المنطقة الواقعة بين نهري نيمين ونريس Neries، إلى أن حقق كثيرمن النجاحات خلال عام ١٢٣٦م، جعلته يتحكم في كل ليتوانيا، ومن ذلك تخلصه من جميع المنافسين له في الداخل، وعلى رأسهم أقربائه، ولهذه الأسباب وغيرها يعتبر هو المؤسس الحقيقي لدولة ليتوانيا[٢٤].

وخلال عهد ميندوجاس نجحت قبائل الساموجيتيين -بقيادة حاكمهم فيكينتاس Vykintas الذين اصبحوا جزءً من أراضي الدولة الليتوانية عقب اتفاقية فولهينيا عام ١٢١٩م- في تحقيق الانتصار على قوة الصليبيين فرسان السيف الليفونيين في معركة سول Saule عام

١٢٣٦، وهو الانتصار الذي ترتب عليه عدد من النتائج؛ يأتي على راسه كونه السبب المباشر في انهيار قوة تنظيم فرسان السيف، واندماجه فيما بعد داخل منظمة فرسان التيوتون، وكما سبق القول فعقب تأسيس تنظيم فرسان السيف في ريغا Riga بلفونيا Livonia عام ١٢٠٢م، انطلق هذا التنظيم ليكون رأس حربة الصليبيين ضد القبائل الوثنية في البلطيق، وظل يسيطر على الحركة الصليبية في محيط بحر البلطيق، ويستحوذ على مواردها وكافة الدعم المقدم لها؛ إلى أن انضم إلى تلك الحركة تنظيم فرسان التيوتون في عام ١٢٢٦م؛ الذي استحوذ على دعم البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبالتالي سيطر على المشروع الصليبي في بحر البلطيق، الأمر الذي أضعف قوة فرسان السيف، ودفعهم للمرتبة الثانية من حيث قوة التأثير العسكري والديني خلف فرسان التيوتون، الذين انتقلت إليهم السيطرة على كافة الأراضي التي تسيطر عليها الحركة الصليبية على ضفاف بحر البلطيق، وما أن جاء عام ١٢٣٠م إلا وتدهورت قوة فرسان السيف الليفونيين تحت قيادة سيدهم فولكفين Volkwin، فقلت مواردهم المالية وتناقصت أعداد فرسانهم، وساءت سمعتهم بين الصليبيين، وتطور الأمر إلى أن دخلوا في صراع مباشر مع البابوية في عهد البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧ – ١٢٤١م) والإمبراطور فردريك الثاني (١٢٢٠ – ١٢٥٠م)، وذلك نتيجة لدعمهما واحتضانهما لفرسان التيوتون، وإصدار المراسيم التي تؤكد على أحقيتهم في السيطرة على الحركة الصليبية داخل البلطيق بصفة عامة وليفونيا وإستونيا Estonia بصفة خاصة(٢٥).

وبالرغم من ذلك نجد أن فرسان السيف كانوا أول من لبى نداء البابا جريجوري التاسع، الصادر بموجب مرسوم في ١٩ فبراير ١٢٣٦م، الذي أعلن من خلاله البابا جريجوري تنظيم حملة صليبية ضد ليتوانيا، فقرر فولكفين سيد فرسان السيف شن هجوم شامل من أجل الاستيلاء على ساحل بحر البلطيق ونشر المسيحية بين القبائل الوثنية، وقرر البدء بمهاجمة أراضي ساموجيتيا Samogitia – وهي إحدى القبائل ضمن اتحاد ليتوانيا، نظرًا لأن أراضي ساموجيتا وقفت حائلًا دون وحدة أراضي وأملاك فرسان السيف، وفي سبيل تحقيق ذلك اتصل فولكفين بفرسان التيوتون في بروسيا للمشاركة في هذا المشروع الصليبي، وسواء أكان هذا النداء من أجل الاستعانة بقوتهم ضد الوثنيين، أم من أجل إظهارهم في ثوب المتعاون مع جميع القوى الصليبية أمام البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة، والحقيقة أن هذا النداء جاء ليؤكد على مدي الضعف الذي انتاب قوة فرسان السيف، وعدم مقدرتهم لمواجهة القبائل الوثنية منفردين، وبالتالي تحاشوا الدخول في معركة فاصلة مع ساموجيتيا قبل مجيئ الدعم من بقية القوى الصليبية، لذا اختار فولكفين الاستمرار في مهاجمة القرى الواقعة على نهر دوجافا Daugava، وعدم التوجه إلى ساموجيتا قبل تجمع الصليبيين، الذي بدأ في سبتمبر من عام ١٢٣٦م، حيث وصلت أعداد من مقاطعة هولشتاين Holstein الألمانية – وهي قبائل ألمانية سكسونية أقامت في

المنطقة الواقعة بين نهري إلبي وأودر في شمال شرق الإمبراطورية الرومانية المقدسة- وانضمت إليهم قوات من المسيحيين من إمارة بوسكوف Pskov الروسية، وكذلك المسيحيين من ليفونيا ولاتفيا وإستونيا، وطالب الجميع فولفين بضرورة التحرك نحو ساموجيتيا، وإبادتها في معركة واحدة(٢٦).

تجمعت القوات الصليبية تحت قيادة فولكفين، ثم اتجهت جنوبًا ناحية أراضي ساموجيتيا، وداهمت وهي في طريقها عدد من القرى، إلى أن استقرت في منطقة سول، وأقامت معسكرًا لها استعدادًا للمعركة، في الوقت الذي استعدت فيه المقاومة الليتوانية بالفرسان وأفراد القبائل وفي مقدمتهم الساموجيتيين بقيادة فيكينتاس، وفي صباح يوم ٢٢ سبتمبر عام ١٢٣٦م استعد الطرفان للقتال، المعسكر الليتواني الوثني ذو التسليح الخفيف، الذي أتاح لهم سرعة في الحركة والقتال، في مقابل المعسكر الصليبي وعلى رأسه فرسان السيف الليفونيين، ذو التسليح الثقيل الذي تسبب في بطء الحركة والقتال، وبالإضافة إلى ذلك اتسمت أرض المعركة في منطقة "سول Saule" بكونها أراضي مستنقعات، كانت القبائل الليتوانية على دراية تامة بها، وسهل عليها القتال بداخلها، وبالتالي استغلتها تلك القبائل ضد الجيش الصليبي، وحولتها من عامل إعاقة إلى عامل للنصر؛ الذي تحقق لهم في يوم المعركة، ومن ثم لحقت بالصليبيين هزيمة نكراء، وقتل في المعركة عدد كبير من الجنود والفرسان، وبخاصة فرسان السيف، الذين قتل منهم ما يقرب من ٦٠ فارسًا، كان من بينهم سيد فرسان السيف فولكفين نفسه، وفرت القوات المصاحبة له من المسيحيين الجدد المحليين من أرض المعركة، متجهين نحو أسقفية ريغا، وقتلوا عن بكرة أبيهم على يد قوات السيميجاليين Semigallians، وتعد هذه الهزيمة واحدة من أكبر الهزائم التي تعرضت لها القوات الصليبية في منطقة البلطيق، حيث هزم فيها أول تنظيم رهباني عسكري كاثوليكي أنشأ في أراضي البلطيق، حيث ألهمت تلك المعركة قبائل السيميجاليين والسيلونيين Selonians والكورونيين Curonians، التي تقع تحت سيطرة فرسان السيف للتمرد ضد حكمهم، الأمر الذي ترتب عليه إضعاف تنظيم فرسان السيف، ودمجه في العام التالي ١٢٣٧م في النظام التيوتوني(٢٧).

وبالرغم من أن هذا الانتصار تحقق نتيجة للوحدة التي قامت بين القبائل داخل ليتوانيا – وإن كانت تلك الوحدة فضفاضة يغلفها الدين والتقاليد والتجارة والقرابة والحملات العسكرية المشتركة على حد قول بعض المؤرخين- وساهم في إظهار قوة المعسكر الوثني في مواجهة المعسكر الصليبي، إلا أن محاولات ميندوجاس دوق ليتوانيا لاستثمار هذا الانتصار من أجل السيطرة على القادة ورؤساء القبائل داخل ليتوانيا؛ تسببت في إدخال ليتوانيا في مرحلة من الحروب الأهلية الداخلية، فكما سبق القول أن ليتوانيا حكمت في أوائل القرن الثالث عشر من قبل عدد من الدوقات والأمراء، الذين يترأسون مختلف الإقطاعيات والقبائل، وكان للمصالح

الاقتصادية حول البلطيق دورًا مهمًا في الرابط بينهم جميعًا، وبالتالي فإن ليتوانيا عقب الانتصار على صليبي فرسان السيف في معركة سول Saule عام ١٢٣٦م واجهت العديد من المصاعب يأتي على رأسها رد فعل الصليبيين على هذه الهزيمة، وفي مقدمتهم منظمة التيوتون – التي ورثت الحراك الصليبي في منطقة البلطيق، عقب هزيمة منظمة فرسان السيف، وكذلك مواجهة خطر المغول، الذي بدأ في الأفق، وأخيرًا الصراعات الداخلية.

وقد مثلت أطماع ميندوجاس المتمثلة في جمع السلطة المركزية داخل ليتوانيا في يديه فقط؛ دون بقية الأمراء ورؤساء القبائل، حتى أن بعض المصادر تذكر أن ميندوجاس سعي بكل قوة نحو فرض نظام الحكم الملكي داخل ليتوانيا، ويسترجع البعض ما حدث أثناء التوقيع على معاهدة التحالف بين القبائل الليتوانية عام ١٢١٩م، عندما تقدم ميندوجاس الصفوف، على الرغم من صغر سنه، ويسرد البعض الآخر أنه وفي سبيل الانفراد بالسلطة داخل ليتوانيا استخدم عدد من الأساليب والطرق؛ ومنها: قتل أو طرد عدد من الدوقات، بما في ذلك أقاربه، وكذلك عبر المصاهرات السياسية، أو عبر الغزو العسكري، ففي عام ١٢٣٩م نجح ميندوجاس في السيطرة على دوقية روثينيا السوداء Black Ruthenia – تقع ضمن دولة بلاروسيا الحالية- وعين عليها نجله فايشفيلكاس Vaišvilkas، ومن ثم انطلق ميندوجاس بدءً من العام التالي (١٢٤٠م) نحو تعزيز قوته في على ضفاف البلطيق وداخل أراضي السلاف، إلا أن استفحال خطر المغول حال دون استكمال ذلك، حيث نجح المغول في إسقاط مملكة كييف الروسية المجاورة لدوقية ليتوانيا عام ١٢٤٠م، وأيضًا تمكن المغول من دخول بولندا جنوب ليتوانيا، وهزيمة جيوشها وإسقاط مدينة كراكوف Kraków عام ١٢٤١م[٢٨].

ونتيجة لذلك اتجه ميندوجاس إلى الجبهة الداخلية، ونتيجة لسياساته اندلعت الحرب الأهلية داخل ليتوانيا عام ١٢٤٩م، وخاصة عقب فشل كل من توتفيلاس Tautvilas وإديفيداس Edivydas أبناء أشقائه داوسبرونغاس Dausprungas وفيكينتاس Vykintas في المهمة التي كلفهما بها، والمتمثلة في احتلال سمولينسك Smolensk – مدينة تقع على نهر الدنيبر جنوب غرب موسكو في روسيا الحالية- عام ١٢٤٥م، ولما سعى ميندوجاس شقيقه فيكينتاس وأراضي أبناء أخيه كل من توتفيلاس وإديفيداس تحالف الجميع مع الساموجيتيين وفرسان ليفونيا الصليبيين وكل من دانيال Daniel أمير جاليسيا وفاسيلكو Vasilko أمير فولهينيا، ومع رفض البولنديين المشاركة في هذا التحالف، سيطر المتحالفين على روثينيا السوداء، التي يحكمها نجل ميندوجاس، ولزيادة التحالف مع الصليبيين ذهب توتفيلاس إلى أسقفية ريجا، ووافق على الدخول في المسيحية، وتم تعميده عام ١٢٥٠م، وبالتالي بدأت غارات فرسان ليفونيا الصليبيين على أملاك ميندوجاس وكل حلفائه، ثم تم مهاجمة أملاك ميندوجاس من جانب المتحالفون من الشمال والجنوب، الأمر الذي ترتب عليه انتشار الاضطرابات داخل جميع أرجاء ليتوانيا[٢٩].

وعلى الفور لجأ ميندوجاس إلى نفس الحيل التي استخدمها أعدائه، من أجل التصدي لهم، حيث فرق بين أسقف ريجا وتنظيم فرسان ليفونيا، عبر رشوة أندرياس فون ستيرلاند Andreas von Stierland قائد فرسان ليفونيا، والذي حَمَّلَ أسقف ريجا هزيمة الفرسان الليفونيين في معركة سول عام ١٢٣٦م، ثم اضطر ميندوجاس مع ضغط الهجمات الصليبية إلى قبول الدخول في المسيحية عام ١٢٥١م، بل والتنازل عن بعض المناطق في غرب ليتوانيا، لصالح فرسان ليفونيا، وكل ذلك في سبيل تفكيك التحالف المعادي له، وأيضًا للوصول إلى مبتغاه في تحويل نظام الحكم داخل ليتوانيا إلى النظام الملكي، وتلقى التتويج من قبل البابا إنوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣ – ١٢٥٤م) وبالتالي الحصول على دعمها السياسي، من أجل التصدي لجميع أعدائه(٣٠).

وبالتالي فإن ميزان القوة بدأ يميل ناحية ميندوجاس نتيجة التحركات الأخيرة، فنجد أنه تمكن من التصدي لحملة عسكرية من أعدائه وعلى رأسهم توتفيلاس وحلفاؤه الباقون في فوروتا Voruta، التي كانت تعتبر أحيانًا أول عاصمة للتوانيا، وعقب فشل الهجوم تراجعت قوات توتفيلاس للدفاع عن نفسها في قلعة تفيراي Tviremet، ومن ثم انهار التحالف المعادي لميندوجاس في الأعوام التالية، حيث توفي شقيقه فيكينتاس عام ١٢٥٣م، وانضم توتفيلاس إلى دانيال دوق جاليسيا، ولما دخل الأخير في اتفاق سلام مع ميندوجاس في نفس العام؛ اعترف توتفيلاس بسيادة ميندوجاس – ولو مؤقتًا- وتنازل له عن أملاكه في بولاتسك، ثم استردها منه كإقطاع، واعترف له بالتبعية، وبذلك تمكن ميندوجاس في فرض هيمنته على الجبهة الداخلية في ليتوانيا؛ تمهيدًا لإعلان الملكية(٣١).

وعلى ما سبق يمكن استنتاج أنه رغم هزيمة المعسكر الصليبي في ليتوانيا في معركة سول عام ١٢٣٦م؛ إلا أن قوة المعسكر الصليبي على ضفاف البلطيق لعبت دورًا مهمًا في المنطقة، وظلت ملجأً لقوى المعسكر الوثني، وخاصة داخل ليتوانيا؛ كما اتضح أثناء الحروب الأهلية التي دارت بين ميندوجاس وأشقائه وأبنائهم، ولعل تحول ميندوجاس الدوق الأكبر لليتوانيا وعائلته من الوثنية إلى المسيحية الكاثوليكية يعد من النجاحات الكبرى التي حققها المعسكر الصليبي في منطقة البلطيق؛ خاصة إذا ما اتفقنا مع رأي عدد من المؤرخين، الذين يرون في ليتوانيا قائدةً للمعسكر الوثني، وإن كان البعض يرى أن تحول ميندوجاس إلى المسيحية لم يكن سوى إعلانًا ظاهريًا من أجل خدمة مصالحه السياسية؛ المتمثلة في تأمين الجبهة الداخلية، والحصول على التاج الملكي من قبل البابوية.

على أية حال تم تتويج ميندوجاس ملكًا على ليتوانيا ومعه وزوجته مورتا Morta خلال صيف عام ١٢٥٣م، وذلك على يد هنري هايدنريتش Henry Heidenreich أسقف كولم Kulm (أسقفية في منطقة بروسيا) وأندرياس ستيرلاند قائد الرهبان العسكريين الليفونيين، وذلك

وسط احتفالات كنسية تليق بالحدث – وهو تحول دوق ليتوانيا زعيمة المعسكر الوثني إلى المسيحية- كمندوبين عن البابا إنوسنت الرابع، وتم وضع التاج فوق رأس ميندوجاس كأول ملك لليتوانيا، وفي الواقع كان ميندوجاس هو الوحيد الذي حمل لقب الملك في ليتوانيا؛ إذا أن حكام ليتوانيا من قبله أو الذين جاءوا بعده حملوا لقب الدوق، وبالتالي فإن نظام الحكم الملكي لم يستمر في ليتوانيا سوى عشر سنوات خلال الفترة الواقعة بين عامي (١٢٥٣ و١٢٦٣م)[٣٢].

وبهذا التتويج يكون ميندوجاس قد وضع ليتوانيا تحت سيطرة البابوية والمنظمات الرهبانية العسكرية في ألمانيا وليفونيا ومنطقة البلطيق، وإن كان ذلك لفترة محدودة، ويتضح ذلك من تقرب ميندوجاس من القوي السياسية في أوربا الغربية الكاثوليكية وعلى رأسها البابوية، فأعاد الليتوانيين غزو نوفجورود الروسية الأرثوذكسية عام ١٢٥٣م، بغرض السلب والنهب، وربما خدمة للمعسكر الكاثوليكي، وعلى هذا تقدم ميندوجاس عام ١٢٥٥م بطلب إلى البابا الكسندر الرابع Alxander IV (١٢٥٥ – ١٢٦١م) للحصول على موافقته بتتويج نجله فايشفيلكاس ملكًا داخل ليتوانيا، خاصة وأنه كان قد تحول إلى المسيحية مع والده، ومن ذلك أيضًا نقله لتبعية بعض المناطق داخل ليتوانيا إلى تنظيم الفرسان الصليبيين في ليفونيا، وخاصة في الغرب داخل مناطق ساموجيتيا ونادروفا Nadruva ودايناڤا Dainava، وإن كان بعض المؤرخين يرى أن هذا التنازل لا يمثل قيمة مهمة أو انتقاص من سلطات ميندوجاس داخل ليتوانيا؛ حيث أن سيطرة الأخير داخل هذه المناطق يكاد يكون معدومًا، وأخيرًا وفي سبيل استمرار التحالف فيما بينه وبين القوي الصليبية وعلى راسها البابوية قام ببناء كاتدرائية في فيلنيوس عاصمة ليتوانيا[٣٣].

وعلى أية حال فعقب تتويج ميندوجاس ملكًا ساد السلام والاستقرار النسبي داخل ليتوانيا لمدة ثماني سنوات، واستغل ميندوجاس هذه الفرصة فقام بإعادة تنظيم الجهاز الإداري والقضائي والدبلوماسي للدولة، وكذلك تتطوير النظام المالي، حيث قام بسك عملات فضية جديدة تحمل شعار الملكية وتخلد ذكرى تتويجه، أيضًا قام ميندوجاس بتأمين الجبهة الداخلية، وخاصة في روثينيا السوداء وبولاستيك – التي كانت أحد المراكز التجارية المهمة في حوض نهر داوجوفا Daugava – وكذلك سعى نحو عقد سلام مع اتحاد جاليكا-فولهانيا، وفي سبيل ذلك زوج ابنته من سفارن Svarn – الذي أصبح دوق ليتوانيا فيما بعد (١٢٦٨ – ١٢٦٩م)- نجل دانييل دوق جاليكا، وبالتالي تمت المصالحة بين ميندوجاس دانييل عام ١٢٥٥م، ونقلت روثينيا السوداء إلى رومان نجل دانييل، ونتيجة لتأمين الجبهة الداخلية نجح ميندوجاس في التصدي لخطر المغول القادم عن طريق الشرق بين عامي ١٢٥٨ و ١٢٥٩م، وذلك عندما أرسل بيرك خان Berke Khan –قائد المغول في أوربا وزعيم القبيلة الذهبية- بورنداي Burundai أشهر قادة المغول العسكريين؛ للاستيلاء على ليتوانيا عبر الأراضي البولندية، إلا أن تأمين ميندوجاس للجبهة الخارجية،

واستعانته بحلفائه من الجبهة الداخلية؛ مكنه من التصدي للحملات المغولية، وتأمين الحدود الشرقية لليتوانيا، حتى أن العديد يعزي إليه الفضل في حماية البلطيق من خطر المغول(٣٤).

والواقع أن ميندوجاس نجح عقب تتويجه ملكًا على ليتوانيا في إدارة الدفة لصالحه، سواء أكان ذلك على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي، غير أن إطلاقه ليد الصليبيين داخل الأراضي الغربية في ليتوانيا وعلى الأخص ساموجيتا؛ ترتب عليه أن استفحل خطرهم داخل ليتوانيا، وبدأ التذمر العام ضد سياسة ميندوجاس تجاههم، فمنذ عام ١٢٥٢م وتنظيم فرسان ليفونيان يسعى للسيطرة على ساموجيتيا، وخاصة بعد أن سمح لهم ميندوجاس ببناء قلعة في كلايبيدا Klaipeda في ساموجيتيا، وقد تحكم الصليبيون من خلال هذه القلعة في طرق التجارة داخل ساموجيتيا والمنطقة الغربية من ليتوانيا، وفرضوا على التجار التعامل عبر الوسطاء المعينين داخل المناطق التي يسطر عليها الصليبيون، الأمر الذي أدي إلى اشتعال الحرب بين الساموجيتيين في ليتوانيا وبين الصليبيين من جديد، حيث هاجم الساموجيتيون قلعة كلايبيدا لعدة مرات، ومع فشل تلك الهجمات شكل النبلاء في ساموجيتيا وبعض مناطق الغرب الليتواني ائتلافًا عسكريًا، وانتخبوا الميناس Almenas قائدًا لهم، الذي بدوره أعاد شن الهجمات العسكرية على قلعة كلايبيدا، حيث نجح في هزيمة الصليبيين في معركة عام ١٢٥٧م، وقتل منهم العديد من الفرسان، واتفق الجانبان على عقد هدنة لمدة عامين برعاية أسقفية ريجا، وذلك بعد ضغط تجار ريجا من أجل حماية مصالحهم وتجارتهم مع الساموجيتيين، وبمجرد انتهاء الهدنة رفض الميناس تجديد الهدنة، ربما لعمله بمدى الضعف الذي ألم بالجانب الصليبي، حيث بدأ الغارات على منطقة كورلاند Curland وهى من أهم أملاك تنظيم فرسان الليفونيين في لاتفيا، خاصة بعد قيام ميندوجاس بمنح ساموجيتيا بأكملها في أغسطس عام ١٢٥٩م لصالح فرسان ليفونيا، والتقى الجانبان في معركة فاصلة في نفس العام، في منطقة سكوداس Skuodas في منطقة كورلاند عام ١٢٥٩م، عندما هاجم جيش الساموجيتيين المؤلف من ٣٠٠٠ جندي، وانتهت المعركة بهزيمة الجانب الصليبي، ومقتل ما يقرب من ٣٣ فارس ومئات الجنود، وألهمت المعركة القبائل الليتوانية في الغرب بضرورة استمرار الضغط على فرسان ليفونيا؛ من أجل تحرير أراضيهم من خلال حرب استراتيجية شاملة ضد هذا التنظيم الصليبي(٣٥).

حيث أعقب انتصار سكوداس تكرار الغارات العسكرية من قبل الساموجيتيين وحلفائهم بقيادة الميناس ومعه ترينيوتا Treniota –ابن أخ ميندوجاس- ضد فرسان ليفونيا، وأسفرت هذه الهجمات عن الحاق الهزيمة الثانية بالصليبيين الليفونيين في ١٣ يوليو عام ١٢٦٠م في معركة دوربي Durby داخل منطقة كورلاند، وهي تعد من أكبر الهزائم التي تعرض لها فرسان ليفونيا، وذلك لحجم الخسائر التي تكبدوها خلال المعركة، وعلى رأسها مقتل العشرات من الفرسان، وترجع أهمية الانتصار لصالح الساموجيتيين كونهم انتصروا على تحالف صليبي مشترك مكون

من فرسان ليفونيا وفرسان التيوتون في بروسيا، وذلك عندما نظم بوركارد فون هورنهاوزن Burchard von Hornhausen سيد فرسان ليفونيا حملة عسكرية صليبية كبيرة للهجوم على معسكر الساموجيتيين، وتحالف معه تنظيم فرسان التيوتون بقيادة هنريك بوت Henrik Botel في بروسيا، خاصة وأن تلك الحملة الصليبية حظيت بمباركة البابوية من خلال مرسوم البابا أكسندر الرابع في ٢٥ يناير عام ١٢٦٠م، الأمر الذي ساهم في اشتراك المزيد من القوى الصليبية مثل الدنمركيين في إستونيا وكذلك قبائل منطقة كورلاند، وتجمعت القوات الصليبية في قلعة ميميل Memel، وكان من المقرر في بداية الأمر الذهاب لتخليص قلعة جورجنبرج - ذات الأهمية التجارية بالنسبة لفرسان ليفونيا وبقية القوى الصليبية- من حصار قوة من الساموجيتيين، غير أن هورنهاوزن قائد الحملة الصليبية عندما علم بهجوم الساموجيتيين الشامل على كورلاند؛ قرر تغيير مسار الحملة للتصدي لهذا الغزو، والدخول في معكرة فاصلة للقضاء على قوة القبائل الليتوانية(٣٦).

كانت قوات الساموجيتيين قد وصلت إلى أرض المعركة أولًا، وذلك على الشاطئ الجنوبي لبحيرة دوربي، والواقع أن مكان المعركة لم يكن في صالح الصليبيين، خاصة وأنها كانت عبارة عن أراضي مستنقعات، يصعب على الجيوش الصليبية ثقيلة التسليح -وبخاصة سلاح الفرسان- التحرك فيها بسهولة من جهة، ومن جهة أخرى معرفة الساموجيتيين بطبيعة هذه الأرض، وطبيعة إدارة المعارك عليها، وبالتالي فقد مثلت أرض المعركة عائقًا أمام القوات الصليبية، خاصة بعد رفض القوات الدنمركية التخلي عن الخيول الثقيلة، فدب الخلاف داخل معسكر الصليبيين، وعندما بدأ القتال بين الجانبين في ١٣ يوليو عام ١٢٦٠م تخلت قبائل الكورونيين – من كورلاند- عن فرسان ليفونيا والتيوتون وانسحبوا، وتلى ذلك انسحاب قوات الدنمركيين – من إستونيا- وتركوا فرسان ليفونيا والتيوتون يلاقوا المصير المحتوم في حربهم ضد الساموجيتيين، حيث انتهت المعركة بهزيمة الجانب الصليبي، وإلحاق خسائر فادحة داخل صفوفه، وتم قتل ما يقرب من ١٥٠ فارس من فرسان ليفونيا وفرسان التيوتون، من بينهم هنريك بوت قائد فرسان التيوتون وبوركارد فون هورنهاوزن قائد فرسان ليفونيا، هذا بالإضافة إلى عدد من الفرسان التابعين للبابوية، وكذلك عدد كبير من الجنود، هذا بخلاف الخسائر المادية في العتاد والسلاح، لذا تعد هذه الهزيمة أكبر الهزائم التي تعرض لها الصليبيين في منطقة البلطيق خلال القرن الثالث عشر(٣٧).

وبالتالي فإن انتصار الساموجيتيين والقبائل الليتوانية في غرب ليتوانيا في معركة دوربي مثل مرحلة حاسمة، خاصة أنه جاء على حساب أقوي التنظيمات الصليبية في منطقة البلطيق، ونقصد بذلك فرسان التيوتون وليفونيا، وعلاوة على ذلك فإن هذا الانتصار ألهم قوى المعسكر الوثني ضد المعسكر الصليبي بقيادة الفرسان التيوتون وفرسان ليفونيا، وكذلك كشف هذا

الانتصار فشل السياسة التي اتبعها ميندوجاس مع فرسان ليفونيا، عندما سمح لهم بالتوغل داخل أراضي ليتوانيا، ووضع الانتصار ميندوجاس أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما أن ينضم لقيادة ثورة المعسكر الوثني ضد الصليبيين، أو يستكمل الطريق الذي بدأه معهم، عبر التحالف والدخول في المسيحية، وهو الأمر الذي لم يتقبله الكثير من القبائل الليتوانية.

أصبحت الأوضاع السياسية داخل ليتوانيا عقب معركة دوربي عام ١٢٦٠م منقسمة إلى معسكرين؛ الأول ويمثله المتحولون إلى المسيحية وعلى رأسهم الملك ميندوجاس، ويتحالف مع المعسكر الصليبي، والثاني هو المعسكر الوثني وعلى رأسه ترينيوتا، وحمل قضية طرد الصليبيين من الغرب الليتواني، وخاصة أراضي ساموجيتيا، وبالرغم من النجاحات التي حققها ميندوجاس على المستويين الداخلي والخارجي، مثل تنظيم العمل الإداري والسياسي داخل ليتوانيا، وكذلك حماية الجنوب الشرقي من خطر المغول، وكذلك كسر السلام مع نوفجورود الروسية عام ١٢٦٢م وقام بمهاجمة أراضيها، لتوسيع أراضي ليتوانيا على حسابها؛ إلا أن موقفه من الكيان الصليبي وسماحه لهم بالتوغل داخل المناطق الغربية، كل هذا لم يشفع له أمام القبائل الليتوانية، في الوقت الذي ارتفعت فيه أسهم ابن أخيه الدوق ترينيوتا قائد المقاومة الليتوانية ضد الصليبيين داخل ليتوانيا، وأمام هذا التهديد أضطر ميندوجاس إلى العودة للاحتماء بالداخل على حساب الجانب الصليبي، فأنهى التحالف مع فرسان التيوتون وليفونيا خلال عام ١٢٦١م، وتذكر المصادر أنه ارتد للوثنية، ولكنها اختلفت حول الأسباب التي أدت إلى ذلك، حيث يذكر البعض أن ارتداد ميندوجاس عن المسيحية كان بتأثير من ابن أخيه ترينيوتا، بينما يرى البعض الآخر أن ميندوجاس ارتد عن المسيحية لأنه اعتنقها منذ البداية لخدمة مصالحه السياسية، وعندما رأي أن تلك المصالح أصبحت في مهب الريح، نتيجة ارتفاع أسهم منافسيه في الداخل، وكذلك هزيمة حلفائه من الصليبيين وضعف قوتهم في المنطقة، أما الرأي الثالث فيرى أن ردة ميندوجاس عن المسيحية ما هي إلا استراتيجية منه للسيطرة على الوضع السياسي الداخلي؛ ومن ثم فهو لم يترك المسيحية إلا في الظاهر فقط، على حد قولهم(٣٨).

وفي الواقع أن طموح ترينيوتا قد ازداد عقب تحقيقه للانتصار على حساب الصليبيين، ولم يشفع لميندوجاس إعلانه الارتداد عن المسيحية وعودته للوثنية، وكذلك إنهائه للتحالف مع الصليبيين، خاصة وأن البعض يذكر أن ميندوجاس لم يحصل على المكاسب التي توقعها من الدخول في المسيحية، وعلى رأس ذلك عدم تقبل الليتوانيين للديانة المسيحية، وإصرارهم على البقاء على الوثنية، فغالبية السكان والنبلاء ظلوا على الوثنية، وتم استبدال الكاتدرائية التي بناها ميندوجاس في فيلنيوس بالمعبد الوثني، وبالتالي فقد ميندوجاس كافة المكتسبات التي حققها من وراء اعتناقه للمسيحية بمجرد ارتداده عنها، وعلى رأس تلك المكتسبات العلاقات الدبلوماسية مع الجانب الصليبي، ومع استمرار دعوة ترينيوتا لحرب الصليبيين في ليفونيا،

وتلقيه الدعم الكامل من الليتوانيين، زاد هذا الأمر من تدهور وضع ميندوجاس في ليتوانيا؛ وانتهي الأمر باغتياله عام ١٢٦٣م ومعه اثنين من أبنائه على يد الدوق ترينيوتا الطموح وحلفائه(٣٩).

وبمقتل ميندوجاس تنتهي فترة الحكم الملكي في ليتوانيا؛ خاصة وأنه هذا التتويج تم من قبل البابوية، فلما ارتد عن المسيحية سقط هذا التتويج المغلف بدعم البابوية، وبمقتله انتهت الملكية الليتوانية، وبذلك انتهت المغامرة المسيحية داخل المعسكر الوثني في ليتوانيا، وتوقف المشروع المسيحي حتى عام ١٣٨٧م، وفي المقابل تم انتخاب ترينيوتا الدوق الأكبر لليتوانيا (١٢٦٣ – ١٢٦٥م)، غير أنه بتولي الأخير حكم ليتوانيا دخلت البلاد في حالة من التدهور السياسي الداخلي، خاصة مع ازدياد الطامعين في الحكم، وكذلك عودة أطماع فرسان التيوتون وليفونيا في احتلال الغرب الليتواني من جديد، الأمر الذي ساهم في استمرار الاضطرابات الداخلية منذ تولى ترينيوتا الحكم عام ١٢٦٣م وحتى تعيين الدوق ترايدنس Traidenis الحكم عام ١٢٧٠م، حيث قتل خلال تلك الفترة أربعة من الدوقات الذين تولوا حكم ليتوانيا خلال فترة وجيزة، بدءً من ترينيوتا (١٢٦٣ – ١٢٦٥) مرورًا بكل من فايسفيلكاس –نجل ميندوجاس- (١٢٦٥ – ١٢٦٨م) ومونوماكوفيتش Monomakhuichi (١٢٦٨-١٢٦٩م) وأخيرًا سفارناس Svarnas (١٢٦٩م)(٤٠).

والواقع أن عهد ترايدنس (١٢٧٠ – ١٢٨٢م) أنهى فترة من الاضطرابات السياسية داخل ليتوانيا استمرت سبع سنوات عقب اغتيال ميندوجاس عام ١٢٦٣م، حيث يعود له الفضل في استمرار ليتوانيا كدولة قائدة للوثنية على ضفاف البلطيق لمدة أكثر من مائة سنة حتى عام ١٣٨٧م، حيث بدأ ترايدنس بتأمين الجبهة الداخلية، واختار لكي يتفرغ لهذه المهمة أن يوقف التوسع ناحية الشرق على حساب المغول، في مقابل استخدام القوة العسكرية لفرض السيطرة على أراضي روثينيا السوداء، وتوسيع أراضي ليتوانيا إلى حدود أراضي سيميجاليا Semigalia وسودوفيا Sudovia، ومن ثم تفرغ للحرب مع اتحاد جاليسيا-فولهينيا، التي استمرت بين عامي (١٢٧٤ – ١٢٧٦م)، وذلك بعد محاولات الانفصال عن ليتوانيا عقب مقتل الدوق سفارناس عام ١٢٦٩م، غير أن ترايدنس نجح في الانتصار في نهاية تلك الحرب، وفرض سيطرته على اتحاد جاليسيا-فولهينيا؛ على الرغم من تلقيهم الدعم من قبل المغول، الأمر الذي يظهر مدي القوة التي وصلت إليها ليتوانيا في عهد ترايدنس، الذي استمر في غزو أراضي جيرانه، ومن ذلك غزوه لأراضي بولندا حتى وصل إلى مدينة لوبلن Lublin، وعقب ذلك كان على ترايدنس التحرك نحو المعسكر الصليبي، وعلى رأسه الفرسان التيوتون الألمان وفرسان ليفونيا، خاصة وأنه عرف بتفانيه في خدمة الوثنية، ونجح في إلحاق هزيمة نكراء بالجانب الصليبي وعلى رأسه الفرسان التيوتون في معركة كاروس Karuse –وهي قرية على شاطئ بحر البلطيق بالقرب من جزيرة موه Muhu- في ١٦ فبراير ١٢٧٠م(٤١).

وقد بدأت المعركة عندما غزا فرسان التيوتون وليفونيا بقيادة أوتو لوتربيرج Otto Lutterberg منطقة سيميجاليا عام ١٢٧٠م، التي تمردت ضدهم بدعم من ترايدنس، الذي ما أن علم بهذا الغزو حتى أعد جيشًا كبيرًا للرد على الصليبيين، وسار شمالًا حتى وصل إلى جزيرة ساريما Saaremaa الواقعة ضمن نفوذ الصليبيين، وقاموا بنهب المنطقة، وكان لوتربيرج قاد عاد إلى ريغا بعد علمه بتقدم الليتوانيين نحوه، وهناك نجح في إعداد جيشًا كبيرًا من الصليبيين من ليفونيا ومنطقة إستونيا الدنمركية وأسقفية دوربات Dorpat وأسقفية أويسيل Ösel وغيرها من القوى الصليبية، وسار نحو جزيرة ساريما لمقابلة الليتوانيين، وفي كاروس حيث أرض المعركة قسم لوتربيرج القوات الصليبية إلى ثلاثة أقسام، جاء هو على رأس القسم الأول وجعل سيفيرث Siverith - نائب ملك الدنمرك إريك الخامس Eric V (١٢٥٩ – ١٢٨٦م)- على رأس القسم الثاني وهرمان أسقف أوسيل Hermann of Ösel على القسم الثالث، وفي المقابل كان الليتوانيين بقيادة الدوق ترايدنس، وقد اختار الأخير أرض المعركة بعناية، وهي منطقة من الجليد على شاطئ بحر البلطيق، وهو ما أعاق تحرك الصليبيين، وانتهت المعركة بانتصار ليتوانيا بقيادة ترايدنس، حيث قتل لوتربيرج ومعه ما يقرب من ٥٢ فارس من الصليبيين، وكذلك جرح الأسقف هيرمان، وقتل ما يقرب من ٦٠٠ جندي، ونتيجة لتلك الهزيمة النكراء حاول الصليبيون الرد بقيادة أندرياس ويستفالن Andreas Westfalen قائد فرسان التيوتون وليفونيا بعد لوتربيرج، في محاولة منه لاستعادة الروح المعنوية للصليبيين، عندما تصدى لهجمات الليتوانيين داخل ليفونيا في منتصف عام ١٢٧٠م، والتقى الطرفان في معركة بادوجافا Padaugava، التي عسكر فيها الصليبيون، فتحرك الليتوانيون وهاجموا المعسكر وقتلوا عدد كبير من الصليبيين، وعلى رأسهم القائد أندريس، وردًا على ذلك هاجم الصليبيون بقيادة إرنست راسبورج Ernst Rassburg أراضي ترايدنس في سيميجاليا عام ١٢٧٢م، وأسسوا بداخلها قلعة دونابورج Dunaburg في عام ١٢٧٣م، وفشلت كل محاولات ترايدنس في استرداد تلك الأراضي حتى عام ١٢٧٨م، إلى أن نجح في ذلك في العام التالي (١٢٧٩م)، عندما هاجم الصليبيون أراضي ليتوانيا حتى منطقة كيرناف Kernavė، وفي طريق عودتهم اصطدم بهم ترايدنس، وألحق بهم هزيمة أخرى عند أزكروكل Aizkraukle في لاتفيا، وللمرة الثالثة ينجح ترايدنس في قتل قائد الفرسان التيوتون إرنست ومعه المئات من الفرسان والجنود، مما يؤكد على تفوق ليتوانيا العسكري في مواجهة الصليبيين خلال تلك المرحلة(٤٢).

وقد ترتب على كل الانتصارات التي حققتها ليتوانيا على الصليبيين خلال عهد ترايدنس تشجيع قبائل البلطيق الأخرى للتمرد على حكم الصليبيين بدءً من عام ١٢٨٠م؛ وأهمها قبائل سيميجاليا، التي استعانت بترايدنس في حربهم مع فرسان التيوتون، واعترفت بسيادة ليتوانيا على أراضيها، وفي سبيل ذلك قام ترايدنس بالهجوم على الصليبين في لاتفيا عام ١٢٨١م، واستولى

على قلعة جرسيكا Jersika، ثم استبدلها مع الصليبيين بقلعة دونابورج، التي أصبحت مركزًا لقوات ليتوانيا العسكرية، لمواجهة الهجمات الصليبية حتى عام ١٣١٣م، وعقب ذلك توفى ترايدنس عام ١٢٨٢م، وبوفاته ضعفت قوة ليتوانيا والمعسكر الوثني، وضعفت كذلك حركة تمرد بقية قبائل البلطيق، مثل بروسيا خلال نتيجة توقف الدعم الليتواني، ونخص بالذكر سيميجاليا، وبخاصة عقب تولى دومانتس Daumants حكم ليتوانيا (١٢٨٢ – ١٢٨٥م)، ودخول ليتوانيا ومعسكر البلطيق في حالة الضعف، وانتهى الأمر بنجاح التيوتون باحتلال سيميجاليا عام ١٢٩٠م، وبالتالي فإنه بضعف مقاومة قبائل البلطيق تلاشت المنطقة العازلة بين ليتوانيا والقوى الصليبية تمامًا، وأصبحت ليتوانيا في مواجهة مباشرة معهم بحلول عام ١٢٩١م، وخاصة بعد عودة الاضطرابات السياسية داخل ليتوانيا بدءً من عهد دومانتس ومرورًا ببداية حكم أسرة جيدمناس خلال الفترة (١٢٨٥ – ١٢٩٥م)[٤٣].

ومن ثم فقد شهدت ليتوانيا تحقيق الوحدة خلال عهد أسرة ميندوجاس (١٢٣٦ – ١٢٨٥م)، ونجحت في توسيع أراضيها على حساب ما جاورها من قبائل البلطيق الأخرى وكذلك المغول، وكل هذا مكنها من التصدي لهجمات القوى الصليبية، مثل نجاحها في القضاء على قوة فرسان السيف، وكذلك وقف توسع فرسان التيوتون، وخلق منطقة عسكرية عازلة فيما بينها وبين الصليبيين، غير أن الاضطرابات السياسية التي أعقبت مقتل ميندوجاس عام ١٢٦٣م وكذلك تلك التي أعقبت وفاة ترايدنس عام ١٢٨٢م تسببت في إضعاف ليتوانيا والقضاء على تلك المنطقة العازلة التي تحميها من هجمات الصليبيين، وانتهى الأمر بإحاطتها حدودها من ناحية الشمال والجنوب الغربي بفرسان التيوتون وأتباعهم، وكذلك أصبحت محاطة بالقوى الأرثوذكسية مثل ممالك روسيا من ناحية الشرق، واصبح لا مفر أمام ليتوانيا وحكامها من الاختيار بين المعسكرين، وهو الأمر الذي حسم خلال حكم أسرة جيدمناس.

رابعًا : موقف ليتوانيا من الحروب الصليبية الشمالية خلال عهد أسرة جيدمناس من عام ١٢٨٥م وحتى عام ١٣٨٧م:

استمرت ليتوانيا في حالة من التقوقع السياسي والحصار من قبل المعسكر الكاثوليكي مع بداية حكم أسرة جيدمناس، وذلك خلال عهد كل من بوتيجيدس Butigeidis (١٢٨٥ – ١٢٩١م) وبوتفيداس Butvydas (١٢٩١ – ١٢٩٥م)، وأمام ازدياد قوة الجانب الصليبي في الغرب، اختارت ليتوانيا خلال عهد أسرة جيدمناس أن تتجه بأنظارها ناحية الشرق، من أجل التوسع على حساب القوى الشرقية ومنها روسيا الغربية؛ كما حدث عام ١٢٨٥م بغزو مملكة نوفجورود، وتخريب عدد من القري والمدن، أو من خلال التقرب من المعسكر الأرثوذكسي الشرقي خلال عهد كل من فيتينيس Vytenis (١٢٩٥ – ١٣١٦م) وجيدمناس Gediminas (١٣١٦ – ١٣٤١م) وألجيرود Algirdas (١٣٤٥ – ١٣٧٧م)، وبالرغم من ذلك فإن الضغط على ليتوانيا تزايد خلال

الفترة (١٢٩٥ – ١٣٧٧م)، حيث ازدادت أطماع الفرسان التيوتون في التوسع نحو الشرق –حيث ليتوانيا- خلال تلك الفترة، وخلال عهد جوجيلو Jogailo (١٣٧٧ – ١٤٣٤م) كان من المحتم ألا تتحمل ليتوانيا العزلة الدينية والسياسية والثقافية، التي فرضها عليها المعسكر الصليبي، وعليها أن تختار إما الكاثوليكية الرومانية أو الأرثوذكسية الشرقية، فاختار جوجيلا المعسكر الغربي، وقبل الدخول في المسيحية عام ١٣٨٦م، ليبدأ بذلك عهداً جديدًا في ليتوانيا.

تولى بوتيجيدس الحكم عام ١٢٨٥م، وفي بداية حكمه ومن أجل التوسع على حساب القوى الشرقية ومنها روسيا الغربية؛ قام بغزو مملكة نوفجورود، وتخريب عدد من القري والمدن عام ١٢٨٥م، وفي الوقت نفسه كانت القوي الصليبية من الفرسان التيوتون والليفونيين قد أنهت استعداداتها الأخيرة من أجل القيام بغزو شامل على قبائل البلطيق، وفي خطوة استباقية لجس نبض الصليبيين، قام بوتيجيدس عام ١٢٨٩م بحملة غير ناجحة مكونه من ٨٠٠٠ جندي على جزيرة ساملاند Samland في الجنوب الشرقي لبحر البلطيق، والتابعة لبروسيا في ذلك الوقت، والواقعة تحت حكم الفرسان التيوتون منذ منتف القرن الثالث عشر، وردًا على ذلك قام التيوتون ببناء قلعة تيلسيت Tilsit في بروسيا على الحدود الغربية مع ليتوانيا، لتكون مركز انطلاق هجماتهم على ليتوانيا وبقية قبائل البلطيق، التي أسفرت أولاها عن فقدان ليتوانيا لقلعة كوكلين Koklainiai، ولذلك قام بوتيجيدس ببناء عدد من القلاع على طول خط نهر نيمين، لتكون حائط صد لتلك هجمات – وظلت مراكزًا لمقاومة غارات الصليبيين حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي- الصليبيين، الأمر الذي اضطر معه بوتيجيدس إلى تجديد التحالف مع اتحاد جاليسيا-فولهانيا قبل وفاته عام ١٢٩١م، وفي عهد خلفه بوتفيداس Butvydas استمر الضغط الصليبي على الشمال الغربي لليتوانيا من قبل التيوتون، وحاول بوتفيداس التماسك أمام هذه الهجمات، ولتخفيف ذلك الضغط هاجم ومعه نجله فيتينيس حلفائهم في دوقية موسوفيا Masovia -كانت تتبع في ذلك الوقت بروسيا ضمن نفوذ التيوتون، على الرغم من كونها مقاطعة بولندية- عام ١٢٩٢م، وبنهاية حكمه عام ١٢٩٥م دخلت ليتوانيا فترة انتقالية خلال عهد الدوق فيتينيس Vytenis (١٢٩٥ – ١٣١٥م) انتقلت خلالها ليتوانيا من مرحلة إنشاء الدولة إلى العودة للتوسع ناحية الشرق –الذي توقف منذ عهد ميندوجاس- لإنشاء الإمبراطورية(٤٤).

ففي البداية وفي سبيل الاستعداد لهجمات الصليبيين؛ قام فيتينيس بالقضاء على التمرد الذي قام في روثينيا السوداء، واستعاد كافة الأراضي التي فقدتها ليتوانيا في هذه المنطقة عقب اغتيال ميندوجاس عام ١٢٦٣م مثل بنسك Pinsk وتوراي Turaŭ، ثم تحرك لمد نفوذ ليتوانيا داخل بولندا؛ عندما دعم بوليسلاوس الثاني Bolesław II دوق موسوفيا، المتزوج من جاوديموندا Gaudemunda -ابنه ترايدنس دوق ليتوانيا السابق- والمتنازع على عرش بولندا مع

ولادسلاو الأول Władysław I – أصبح فيما بعد ملكًا لبولندا (١٣٢٠ – ١٣٣٣م)- ويضاف إلى ذلك نجاحه في إخماد ثورات النبلاء في منطقة ساموجيتا، التي تقع تحت سيطرة ليتوانيا، الذين بدأوا في التواصل مع فرسان التيوتون في بروسيا، وأرادوا استبدال تبعيتهم من دوقات ليتوانيا لمقدمي التيوتون، ومن ثم فقد سعى كل جانب –ليتوانيا والتيوتون- لزعزعة حلفاء وأتباع الآخر، وكذلك عمل كل جانب على تقوية نفسه عسكريًا من أجل الاستحواذ على الآخر، خاصة بعد زيادة الهجمات الصليبية من قبل التيوتون على ليتوانيا وساموجيتيا وبروسيا الوثنية وغيرها من قبائل البلطيق منذ عام ١٢٩٠م، ومن ثم قام فيتينيس بتجديد وتقوية خط القلاع التي بناها دوق ليتوانيا السابق بوتجيدس على نهر نيمين وجورا Jūra، وردًا على ذلك أنشأ التيوتون عددً من القلاع لمواجهة هذه التحصينات الليتوانية من الجهة المقابلة، ومن المعروف أن الصليبون بقيادة التيوتون ومن خلال حملاتهم أرادوا إنشاء ممر عسكري على طول بحر البلطيق في ساموجيتيا، يربط بينهم وبين الصليبيين في ليفونيا(٤٥).

وفي خضم الصراع بين ليتوانيا والصليبيين التيوتون في عهد فيتينيس، أصبحت الفرصة سانحة أمام ليتوانيا، لكي تمد نفوذها داخل ليفونيا الصليبية، وذلك عندما قام صراعًا سياسيًا داخل ليفونيا عام ١٢٩٧م، بين كل من مواطني مدينة ريجا وفرسان الصليب في ليفونيا، ولما فشل وساطة يوهانس Johannes أسقف كنيسة ريجا بين الطرفين وتطور هذا الصراع ليصبح حربًا أهلية بين الجانبين، خاصة بعد انضمام يوهانس إلى جاني أهالي مدينة ريجا، ولما نجح فرسان ليفونيا في هزيمة أهالي ريجا لم يجد مواطني ريجا بدً من قبول المساعدة التي عرضها فيتينيس دوق ليتوانيا، الذي لم يتوانى عن استغلال هذه الفرصة، ليؤكد على تفوق ليتوانيا زعيمة المعسكر الوثني على المعسكر الصليبي، وفي سبيل تخفيف حدة التوتر بين جنود ليتوانيا الوثنيين وقوات مدينة ريجا أثناء حربه مع الصليبيين في ليفونيا، تذكر المصادر انه قدم وعودًا غامضة لم تكن لتنفذ في حقيقة الأمر حول إمكانية تحوله وشعب ليتوانيا للمسيحية، وفي مارس من عام ١٢٩٨م تم إبرام اتفاقية التحالف بين ليتوانيا وريجا، وفي مايو من نفس العام انطلق فيتينيس بحملة عسكرية نحو ليفونيا، ونجح بالتعاون مع سكان ريجا في تدمير قلعة كاركوس Karkus، التي تقع شمال مدينة ريجا، ثم تقدم نحو معسكر الليفونيين، حيث انتصر عليهم بمعاونة أهالي ريجا في معركة قلعة توريدا Turaida بالقرب من نهر جوجا Gauja في ليفونيا في ١ يونيو ١٢٩٨م، وعلى الرغم من نجاح فرسان ليفونيا من الحاق الخسائر بقوات ليتوانيا في بداية المعركة؛ إلا أن فيتينيس تمكن في النهاية بدعم من قوات أسقفية ريجا من تحقيق الانتصار، وقتل برونو Bruno سيد فرسان ليفونيا ومعه ما يزيد عن ٢٢ فارسًا والعشرات من الجنود(٤٦).

وردًا على ذلك أرسل التيوتون فرقة عسكرية لنجدة فرسان ليفونيا، الذين نجحوا من خلال تلك المساعدة في هزيمة قوات ليتوانيا وريجا في معركة نيورمولين Neuermühlen في ٢٨

يونيو من نفس العام، وكانت هزيمة قاسية ويظهر ذلك من خلال أعداد القتلى بين صفوف قوات ليتوانيا وريجا، والتي يذكر البعض أنها تقدر بالآلاف، وإن كان الأرقام مبالغ فيها؛ إلا أن الثابت أن الهزيمة كانت ثقيلة، انطلق بعدها قوات التيوتون وليفونيا لمحاصرة مدينة ريجا، ومع تهديد إيرك السادس Eric VI ملك الدنمارك (١٢٨٦-١٣١٩م) لغزو ليفونيا لمساعدة أسقفها يوهانس، ومع توسط البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤-١٣٠٣م) تم التوصل إلى هدنة بين الطرفين، وبالرغم من ذلك فقد استمر التحالف بين ليتوانيا وريجا حتى عام ١٣١٣م، ذلك التحالف الذي مكن ليتوانيا من إنشاء قلعة عسكرية بالقرب من مدينة ريجا، التي من خلالها أمنت ليتوانيا تجاراتها داخل ليفونيا، وعززت نفوذ ليتوانيا في حوض نهر دوجافا، وانطلقت منها بغزواتها العسكرية ضد الصليبيين، فخلال الفترة بين عامي ١٢٩٨-١٣١٣م قاد فيتينيس ١١ حملة عسكرية ضد التيوتون في بروسيا، للرد على هجمات التيوتون على أملاك ليتوانيا وحلفائها، ومن ثم فإن الحرب كانت سجالًا بين الجانبين خلال تلك الفترة، حيث سيطرت ليتونيا على بولاتسك عام ١٣٠٧م، وهي مركز تجاري رئيسي مهم لليتوانيا(٤٧).

وفي المقابل قام التيوتون بغزو أراضي بومرانيا وبولندا حلفاء ليتوانيا، ومن أجل السيطرة الشاملة على منطقة البلطيق نقل التيوتون مركزهم الرئيسي من البندقية إلى مارينبورج Marienburg في بروسيا عام ١٣٠٩م، ونجحوا في انتزاع دانزج Danzig من بومرانيا عام ١٣١١م، وكذلك ضموا قلعة دونابورج من سيميجاليا التابعة لليتوانيا عام ١٣١٣م، وبالرغم من ذلك فإن فيتينيس نجح في الحفاظ على ليتونيا ومقاومتها للصليبيين، وكذلك اتبع سياسية متوازنة مع المعسكرين الكاثوليكي والأرثوذكس، ففي الوقت الذي سمح فيه للرهبان الفرنسيسكان ببناء كنيسة كاثوليكية للتجار الألمان في نافهرودك؛ أسس لإنشاء مطرانية أرثوذكسية في روثينيا، وانتهى عهده عام ١٣١٥م، ليستلم الراية من بعده الدوق جيديمناس، الذي أصبحت ليتوانيا في عهده قوة عسكرية وسياسية كبرى أوروبا الشرقية(٤٨).

والواقع أن ليتوانيا منذ بداية عهد جيدميناس عام ١٣١٦م وحتى تعميد جوجيلو عام ١٣٨٦م مرت بمرحلة من التوازن السياسي والعسكري، فمن ناحية اختارت التوسع العسكري على حساب أوربا الشرقية وخاصة روسيا الغربية، ومن ناحية أخرى اتبع دوقاتها سياسة دينية متوازنة، على رأسها الحفاظ على الهوية الوثنية للدولة، مراعاة للقبائل الليتوانية التي ترفض المسيحية، في الوقت الذي راعي حكام ليتوانيا التقرب إلى المعسكرين الأرثوذكسي الشرقي والكاثوليكي الغربي، وخاصة مع البابوية زعيمة الأخير، التي رأي دوقات ليتوانيا ضرورة استغلال الشقاق بينها وبين التيوتون، الذين اختاروا خدمة أباطرة ألمانيا على الدفاع عن مصالح البابوية، وبالتالي فإن ليتوانيا حافظت على حدودها الغربية عبر سياستها المتوازنة مع البابوية وأسقفية

ريجا، من أجل استمرار توسعها ناحية الشرق، وليس أدل على قوة ليتوانيا خلال هذه الفترة من قول فيشر[٤٩]: أن ليتوانيا خلال هذه الفترة "قفزت ..... فجأة إلى أعلى مسارح التاريخ".

وبداية فإن جيدميناس هو أحد أهم حكام ليتوانيا في تاريخها المبكر، ويعزى إلى عهده (١٣١٦ – ١٣٤١م) الفضل في تأسيس هذا الكيان السياسي وتوسيع أراضيه، التي ضمت المنطقة الممتدة من بحر البلطيق إلى البحر الأسود، وبالرغم من كونه بطل الوثنية نجده يتقرب من البابوية وحكام الممالك المسيحية المحيطة بليتوانيا، لكي يواجه الحصار الذي فرضته القوي الصليبية من التيوتون والليفونيين، ولأجل ذلك أيضًا تحالف مع المغول ضد التيوتون عام ١٣١٩م، وكل هذا ساهم في نجاح جيدميناس في دمج العديد من الإمارات السلافية في أراضي ليتوانيا خلال الفترة (١٣١٦-١٣٤٠م)، مستغلًا الصراعات المستمرة بين تلك الإمارات، وكذلك حالة الضعف التي انتابتها جراء الغزو المغولي المتكرر، ويضاف إلى ذلك عدم قدرة أهالي تلك الإمارات على مقاومة الليتوانيين مقاومة مجدية، وأولى تلك الإمارات كانت إمارة ودولة كييف، عندما وجه إليها جيديمناس حملة عسكرية إليها حوالي عام ١٣٢٠م، وقد تصدي له ستانيسلاف Stanislav حاكم كييف، والتقى الطرفان عند نهر إيربين Irpin، وانتهت المعركة بانتصار عظيم لصالح ليتوانيا، ترتب عليها أسر ستانيسلاف، وتوسيع حدود ليتوانيا علي حساب أراضي كييف، حتى وصلت إلى البحر الأسود، وفي الوقت استغل فيه جيديمناس ضعف السلاف نجد أنه تحاشي الدخول في أية حروب مع المغول عقب وصوله بحدود ليتوانيا إلى البحر الأسود، وخاصة وأنهم كانوا يمثلون قوة إقليمية كبيرة، وكذلك نجح في إقامة تحالف سياسي مع إمارة ودولة موسكو Moscow، عبر المصاهرة السياسية التي تمت من خلال زواج ابنته من شمعون Simeon دوق موسكو، ومن ثم فقد قطع شوطًا كبيراً في تقوية ليتوانيا وتوسيع حدودها ناحية الشرق؛ في الوقت الذي ساهمت فيه دبلوماسيته في حماية حدودها الغربية[٥٠].

فكما تقدم كانت الهجمات المتكررة من قبل المنظمات الصليبية بذريعة تحويلها للمسيحية كانت في السابق توحد جميع القبائل الليتوانية من أجل مواجهتها، غير أن جيديمناس هدف إلى تأسيس دولة مترامية الأطراف، تحكمها سلالة لا تجعل ليتوانيا آمنة فحسب بل قوية، ولهذا دخل في مفاوضات دبلوماسية مباشرة مع البابوية، حيث بعث في نهاية عام ١٣٢٢م برسائل إلى البابا يوحنا الثاني والعشرين John XXII (١٣١٦-١٣٣٤م) يطلب فيها حمايته من هجمات الصليبيين وعلى رأسهم التيوتون، وشرح له وضع المقيمين المسيحيين من التجار والرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان، ومدى الامتيازات الدينية التي يحصلون عليها داخل ليتوانيا أو الأراضي التابعة لها، ومن أهم تلك الامتيازات السماح لهم ببناء الكنائس والوعظ، وتذكر بعض المصادر أن جيديمناس ذهب إلى أبعد من ذلك بأن طلب من البابا إرسال مندوبيه إليه من أجل تعميده وإدخاله في المسيحية، وفي الغالب كان ذلك مجرد إعلان أجوف لا يتضمن الحقيقة،

ولأجل خدمة مصالحه السياسية، فهو يعلم تمام العلم أن أمرًا كهذا سوف يؤلب عليه الجبهة الداخلية من الشعب الليتواني الوثني(٥١).

وفي الواقع تواصل جيديمناس مع بداية عام ١٣٢٣ م وحتى أكتوبر من العام نفسه مع عدد من المدن والمنظمات الدينية المسيحية؛ من أجل خلق كيان داعم له من أجل كسب ثقة البابوية، والتصدي لأي عداء أو هجمات قد يقوم بها فرسان التيوتون ضد ليتوانيا في ظل حكمه، ومن ذلك ما حدث من إرساله خطاب في ٢٥ يناير عام ١٣٢٣ م إلى شعوب مدن لوبك Luebeck وسوند Sund وبريمن Bremen وماجدبورج Magdeburg وكولن Cologne، وأعاد إرسال الخطابات إلى مدن لوبك وسوند وروستوف Rostov وجريفسولاد Greifswald وستيتين Stettin وجوتلاند Gotland في ٢٦ مايو عام ١٢٣٢م، كذلك أرسل رهبان الدومنيكان ورهبان الفرنسسكان في نفس التوقيت(٥٢).

ومن الواضح أن تلك السياسة من جانب جيديمناس قد أثمرت، حيث اقتنع البابا ومعه العديد من القوى المسيحية في المنطقة بإمكانية تحول جيديمناس وشعب ليتوانيا إلى المسيحية، وبالتالي الاستفادة من هذه القوة الجديدة في تحقيق أهداف البابوية وحلفائها في منطقة البلطيق، خاصة مع المساندة التي قدمها أسقف مدينة ريجا فردريك لوبيستات Frederic Lobestat لجيديمناس، الذي أقنع البابا يوحنا الثاني والعشرين بضرورة بدء التفاوض من أجل إحلال السلام بين الطرفين، وتلى ذلك إرساله لبعثة دبلوماسية من مندوبيه نيابة عن البابا إلى جيديمناس؛ من أجل التمهيد لعقد السلام بين ليتوانيا والقوى المسيحية

الأمر الذي دفع البابا في النهاية إلى الموافقة على ما تقدم به ميندوجاس، ليس من أجل مصالح الأخير؛ وإنما وقوفًا في وجه التيوتون، الذين تحولوا لرعاية مصالح الإمبراطورية على حساب البابوية، وبالتالي خلق حليف جديد في قوة جيديمناس دوق ليتوانيا الدولة القوية في منطقة البلطيق وشرق أوروبا، وتدخلت البابوية من أجل فرض السلام بين ليتوانيا والقى المتحاربة، وفرضت اتفاقية للسلام باسم العالم المسيحي بأكمله بين جيديمناس وبين ممثلي رئيس أساقفة ريجا وأسقف دوربات وملك الدنمارك ومقدمي فرسان الفرنسيسكان والدومينكان ومقدم فرسان التيوتون، وبوصول مندوبي البابا وتأكيد جيديمناس على الامتيازات التي وعد بها وتعهده بقبول المسيحية؛ تم التوقيع على اتفاقية السلام في فيلنيوس في ٢ أكتوبر عام ١٣٢٣م، وعلى الفور استغل جيديمناس هذا السلام فأرسل إلى اتحاد مدن الهانزا Hanseatic League التجارية في الشمالي، وعقد معهم اتفاق عام ١٣٢٥م يضمن لشعب الهانزا من رجال دين ونبلاء وفرسان وفلاحين بالمجيء إلى ليتوانيا دون تحصيل أية رسوم، والاستقرار بها وبناء الكنائس حتى في العاصمة فيلنيوس نفسها، وأيضًا الاحتكام إلى قوانينهم الخاصة(٥٣).

وبالتالي فإن جيديمناس أراد أن يؤمن الجهة الغربية عبر اتفاق فيلنيوس ١٣٢٣م حتى يستكمل مشاريعه من أجل التوسع على حساب أوربا الشرقية والوقوف أمام أية أخطار قد يشكلها المغول، بعدما أصبحت حدود ليتوانيا تتصل بهم عبر البحر الأسود، وفي الوقت نفسه كان على أتم استعداد للتصدي لهجمات الصليبيين، التي يعلم أنها لن تتوقف قبل أن تستحوذ على دولته، على الأقل من جانب التيوتون، الذين اتخذوا من نشر المسيحية بين الشعوب الوثنية شعارًا لهم، وهم في الحقيقة يبحثون عن توسيع أملاكهم وأملاك ألمانيا على حساب أراضي هذه الشعوب، غير أن قيامه بغزو منطقة دوبريزو Dobrzyń آخر معاقل التيوتون في بولندا ردًا على إحدى هجماتهم على أراضيه؛ أظهره في صورة المعتدي الذي لم يحترم اتفاق عام ١٣٢٣م في فيلنيوس، وقد استخدم التيوتون وأساقفة بروسيا هذا الأمر ضد جيديمناس، وشككوا في مدى صدقه ووفائه بوعوده تجاه المسيحية والمسيحيين، وبالتالي فهو أعطاهم سلاحًا جاهزًا يستخدمونه ضده، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فمن الجهة المقابلة اتهمه رعاياه الأرثوذكس بأنه يميل نحو الكاثوليكية –البدعة اللاتينية- والبابوية، وبالتالي فهو مهدد بفقدان دعم القوى الأرثوذكسية الشرقية، إلا أن الخطر الأكبر تمثل في ثورة الليتوانيين الوثنيين، الذين اتهموه بالتخلي عن الآلهة القديمة، وبالتالي لم يكن هناك مفر أمام هذه الصعوبات من قيام ميندوجاس بالتراجع عن وعوده السابقة بقبول المسيحية، حيث رفض استقبال مندوبين البابا، الذين وصلوا إلى ريجا في سبتمبر عام ١٣٢٣م، وقام بطرد الفرنسيسكان من أراضيه، ومن ثم فهذه التحركات الأخيرة تؤكد على حقيقة واحدة؛ وهي اعتراف ميندوجاس أن العنصر الوثني كان لا يزال أقوى قوة في ليتوانيا، ولا يمكن الاستغناء عنه في النضال القادم من أجل القومية الليتوانية(٥٤).

ولكي لا يخسر البابوية والقوى المسيحية الغربية تواصل جيديمناس سرًا من خلال سفرائه مع مندوبين البابا في ريجا، وأبلغهم بأنه كان مجبرًا على إعلانه عدم الدخول في المسيحية، وعدائه مع القوي المسيحية، وأنه في حقيقة الأمر عازم على تنفيذ اتفاق السلام وتقبل المسيحية، وقد اقتنع مندوبو البابا وبدعم من أسقف ريجا بعروض جيديمناس، وأعلنوا التصديق على معاهدة فيلنيوس مرة أخرى، وأمروا بقوة البابا بضرورة وقف الحرب من قبل القوى المسيحية المجاورة ضد ليتوانيا ولمدة أربع سنوات، وربما ساعد في ذلك سماحه بغزو منطقة لوفوت Lovot التابعة لمملكة نوفجورود الأرثوذكسية عام ١٣٢٣م، وبالرغم من ذلك لم يراع التيوتون البابوية واتفاقها مع ليتوانيا، واستأنفوا الحرب ضد الأخيرة من جديد، وذلك عندما قاموا بقتل أحد مندوبي جيديمناس، الذين أرسلوا لمقابلة مقدم التيوتون في ريجا عام ١٣٢٥م، ولذلك قام جيديمناس بعقد تحالف سياسي مع بولندا عبر المصاهرة السياسية التي تمت بين ابنته ألدونا Aldona وبين كازيمير الثالث Casimir III – فيما بعد ملك بولندا (١٣٣٣ – ١٣٧٠م)- ابن ولادسلاو الأول ملك بولندا، وذلك لتشكيل حائط صد عسكري مشترك أمام هجمات الصليبيين التيوتون،

وقد ساعد هذا التحالف في نجاح ليتونيا وبولندا في الاستمرار في صد الهجمات المتكررة من قبل التيوتون في بروسيا خلال الفترة (١٣٢٦ – ١٣٣٢م)، حتى عقد الهدنة بين الطرفين عام ١٣٣٢م(٥٥).

وبالرغم من استمرار هجمات الصليبيين التيوتون على الأراضي التابعة لليتوانيا؛ إلا أن نجاح ميندوجاس في إقناع البابوية والقوى المسيحية الأخرى بأهمية الحفاظ عليه وعلى دولته – رغم وثنيتها- للتصدي لطموح التيوتون الزراع العسكرية لألمانيا – الطرف الثاني للصراع العلماني مع البابوية- صاحبة الأطماع في منطقة البلطيق، وبالرغم من أن العديد من المؤرخين يؤكدون على عدم اقتناع ميندوجاس بالمسيحية أو بالدخول فيها، لأن ذلك من شأنه تأليب الوثنيين عليه – الذين هددوه بأن يلاقي نفس مصير ميندوجاس ملك ليتوانيا السابق، الذي تم اغتياله عام ١٢٦٣م- وفي الوقت نفسه كانت البابوية تشك أيضًا في إمكانية حدوث ذلك، إلا أن ميندوجاس كانت لديه مشاريعه الخاصة، المتمثلة في توسيع أملاك ليتوانيا والعمل على زيادة قوتها، وفي سبيل ذلك كانت لديه استراتيجية، يأتي على رأسها كسب دعم البابا والقوى الكاثوليكية، وبالتالي منح مكانة لرجال الدين الكاثوليك داخل ليتوانيا، ولكن بغرض رعاية مصالح الكاثوليك المقيمين على أراضيها، وليس من أجل التبشير بالمسيحية بين صفوف الليتوانيين، حيث عاقب وبشدة كل من يقوم بالتبشير بالمسيحية في ليتوانيا، من ذلك ما حدث بين عامي ١٣٣٩ و ١٣٤٠ م عندما أعدم عدد من الرهبان الفرنسيسكان من منطقة بوهيميا، عندما قاموا بالوعظ العلني بالمسيحية داخل ليتوانيا، وبالتالي ضمن ميندوجاس لدولته التوسع ناحية الشرق عبر القوة العسكرية أو الدبلوماسية – مثلما حدث أعوام ١٣٢٦ و١٣٣١م، عندما قام ميندوجاس بإرسال مبعوثيه إلى نوفجورود، لعقد اتفاقية للسلام بين الدولتين، تحسبًا لأي هجوم صليبي، بل نجده في عام ١٣٣ م يرسل بعثة إلى نوفجورود ويعلن أنه على استعداد تام بدخول المسيحية على المذهب الأرثوذكسي- والحماية من الناحية الغربية عبر الدبلوماسية مع القوى المسيحية، وظل هذا الوضع حتى وفاته عام ١٣٤١م، حيث تولى من بعده حكم ليتوانيا جونوتيس Jaunutis (١٣٤١ – ١٣٤٥م)، الذي عادت خلال عهده الاضطرابات السياسية داخل ليتوانيا، وذلك بينه وبين أشقائه على الانفراد بعرش ليتوانيا، وذلك على الرغم من هدوء الحرب بين ليتوانيا والصليبيين خلال تلك الفترة، وإلا أن الحروب الأهلية انتهت بعزل جونوتيس عام ١٣٤٥ م وتعيين شقيقه أولجيرد Algirdas دوقًا على ليتوانيا (١٣٤٥ – ١٣٧٧ م)(٥٦).

وعلى الرغم من أن عهد جونوتيس (١٣٤١ – ١٣٤٥م) كان فاصلاً بين عهدي كل من الدوق جيديمناس والدوق أولجيرد؛ إلا أن الأخير يعد هو الوريث الحقيقي لعصر جيديمناس، حيث ترك له الأخير دولة قوية عسكريًا ودبلوماسيًا، ومن ثم وعقب وصوله إلى حكم ليتوانيا عام ١٣٤٥ م

استكمل سياسة جيديمناس التوسعية؛ وبنهاية عهده عام ١٣٧٧ م كان أولجيرد قد نجح في إنشاء إمبراطورية تمتد من دول البلطيق إلى البحر الأسود، بما في ذلك أجزاء من أراضي دوقية موسكو.

وفي سبيل مشروعه من أجل توسيع أراضي ليتوانيا استعان أولجيرد بالحرص السياسي الذي ورثه عن جيديمناس، وكذلك وقف إلى جانبه شقيقه كيستاتيس Kestatis – فيما بعد دوق ليتوانيا (١٣٨١ – ١٣٨٢م)- وهو شخصية قوية خلال هذه الفترة، وبالرغم من أن ليتوانيا كانت محاطة بالأعداء من جهات متعدد، مثل التيوتون من الشمال الغربي، ومغول القبيلة الذهبية في الجنوب الغربي ودوقية موسكو في الشرق وأخيرًا بولندا في الغرب؛ إلا أن ليتوانيا نجحت عبر الدبلوماسية تارة والحرب تارة أن تخرج منتصر، وأن يستكمل أولجيرد مشاريع التوسع التي ورثها عن جيديمناس، وفي البداية اختار تأمين أملاك ليتوانيا في كييف، وانطلق منها نحو أراضي مغول القبيلة الذهبية وأراضي موسكو Muscov، إلى أن نجح في اكتساب نفوذًا إقليميًا على تلك الأراضي، وقام في نهاية الأمر بتعيين نجله أندرو Andrew أميرًا على منطقة بسكوف Pskov مدعومًا من عدد من المدن التابعة لجمهورية نوفجورود Novgorod Republic الروسية، ونتيجة لذلك دخل في حرب مفتوحة مع موسكو والمغول على حد سواء، حيث نجح في هزيمة المغول في معركة المياه الزرقاء Blue Waters على شواطئ نهر سينوك Synyukha عام ١٣٦٢م في حوض الدنيبر، مستغلًا النزاعات الداخلية على الحكم، وانتهت المعركة انتصار حاسم لليتوانيا على المغول، ترتب عليه طرد المغول إلى شبه جزيرة القرم، والتأكيد سيادة ليتوانيا على كييف والمناطق المجاورة لها، بما في ذلك كل المناطق المطلة على البحر الأسود، وأصبحت ليتوانيا في مواجهة مباشرة مع موسكو، التي توجه لها أولجيرد بحملة عسكريًا وضرب عليها الحصار خلال الفترة (١٣٦٨ – ١٣٧٠ م)، وفي نهاية الأمر تمكن أولجيرد بالسيطرة على كامل حوض الدنيبر(٥٧).

ونتيجة لاتجاه سياسة ليتوانيا تجاه شرق أوربا خلال عهد أولجيرد (١٣٤٥ – ١٣٧٧م)، ترتب عليها تأثره بالأرثوذكسية الشرقية، حتى أن البعض نادى باعتناقه المسيحية على المذهب الأرثوذكسي عقب زواجه من أميرة موسكو ماريا فيتبسك Maria of Vitebsk عام ١٣١٨م، وإن كان هذا الأمر يقع محل الشك؛ إلا أن المؤكد هو سماح أولجيرد لرجال الدين الأرثوذكس بالتحرك داخل ليتوانيا، وبناء الكنائس الأرثوذكسية، وذلك خدمة لتحركاته العسكرية في روسيا الغربية وحوض الدنيبر، ونتيجة لانشغال أولجيرد بالشرق الأرثوذكسي، وتركيزه في تحقيق انتصاره على الروس والمغول، هاجم التيوتون أراضي ليتوانيا عام ١٣٤٨م، وحققوا انتصارًا على القوات الليتوانية في منطقة نهر ستراف Strawe –أحد روافد نهر نيمين- في ٢ فبريرمن نفس العام، حيث وقفت قوات التيوتون الصليبية مدعومة بقوات من إنجلترا وفرنسا أمام قوات ليتوانيا المدعومة بقواتها الشرقية من أراضيها في روسيا الغربية، وكادت القوات الليتوانية أن تحقق الانتصار خلال المعركة؛ إلا أن تفوق سلاح الفرسان التيوتون الثقيل رجح كفة الصليبيين، وتحملت ليتوانيا

هزيمة ثقيلة فقد خلالها العديد من الفرسان والآلاف من الجنود، والواقع أن ارتماء أولجيرد في أحضان الأرثوذكسية تسبب في تغير موقف البابوية من دعم السلام فيما بين ليتوانيا والقوي المسيحية على الحدود الغربية، مما ترتب عليه تكرار الهجمات الصليبية على الغرب والشمال الغربي لليتوانيا(٥٨).

وبالتالي فقد انتهي المطاف إلى دعم البابوية لتلك الهجمات، حتى أن البابا أربان الخامس Urban V (١٣١٩ – ١٣٧٠م) أصدر مرسومًا في عام ١٣٦٤م للحث على استكمال الحرب ضد ليتوانيا، من أجل اقتلاع الوثنية من منطقة البلطيق، وهو الأمر الذي ترتب عليه حملة صليبية كبيرة من قبل التيوتون في بروسيا ضد أراضي ليتونيا خلال الفترة (١٣٦٩ – ١٣٧٠ م)، نجح خلالها التيوتون من تدمير حصنًا بالقرب من نهر نيفيز Nevėžis –أحد روافد نهر نيمين في وسط ليتوانيا، ثم انتهت تلك الحملة بانتصار الصليبيين على ليتوانيا في معركة روداو Rudau في ١٨ فبراير ١٣٧٠ م، وسقط العديد من القتلى في صفوف الليتوانيين، عاد بعدها أولجيرد إلى فيلنيوس ومعه ما تبقى من قوات يتبعه الصليبيين، وبالتالي فإن هذه المعركة وضعت حدًا لهجمات القوات الليتوانية على بروسيا فيما تبقى من سنوات خلال القرن الرابع عشر الميلادي، حيث استغل الصليبيون نتائج تلك المعركة حتى بعد وفاة أولجيرد عام ١٣٧٧ م، وذلك في خلال عهد خليفته جوجيلا (١٣٧٧ – ١٤٣٤م)، الذي أدرك ضرورة الاهتمام بالحدود الغربية لليتوانيا ووقف التوسع على حساب أوربا الشرقية(٥٩).

وهكذا سار أولجيرد على نفس سياسة والده جيديمناس، واستكمل فتوحاته في أوربا الشرقية، حتى وصل بحدود ليتوانيا لتضم حوض نهر الدنيبر، وكذلك وصلت إلى البحر الأسود، فاستكملت ليتوانيا في عهد إخضاع روسيا الغربية رغم سعتها المترامية الأطراف، حيث استحوذت على كييف، وأصبح لها أملاك في موسكو ونفوذًا داخل نوفجورود، وأستغل حالة الضعف التي انتابت هذه الممالك؛ نتيجة لهجمات المغول المتكررة على أراضيهم، وانتهى الأمر بتقبل الروس الليتوانيين الوثنيين رغم مسيحيتهم، وتطلب ذلك الميل ناحية الشرق وأرثوذوكسيته، لضمان الولاء والانضمام للجيش الليتواني، وبالتالي عدم الاهتمام ولو بنفس القدر على الجانب الغربي وكاثوليكيته، الأمر الذي افقدهم دعم القوى المسيحية الطامعة في أراضيهم وفي إدخالهم في المسيحية على مذهبهم، وهو الأمر الذي فطن إليه جوجيلا، فاختار المسيحية الكاثوليكية دينًا له ولدولته.

وبالرغم من تقرب ليتوانيا إلى القوى المسيحية الكاثوليكية الغربية تارة والقوى المسيحية الأرثوذكسية الشرقية تارة أخرى؛ إلا أنها حافظت على هويتها الوثنية حتى بداية عهد الدوق جوجيلا (١٣٧٧ – ١٤٣٤ م)، وربما يرجع ذلك إلى قوة القبائل الليتوانية الوثنية وتمسكها بعقيدتها الوثنية، وخشية حكام ليتوانيا من فقدان سيطرتهم على تلك القبائل في حالة الإعلان الصريح

عن دخول المسيحية وفرضها عليهم، ولا نغفل ما جري لميندوجاس من اغتيال عام ١٢٣٦م، وما تبع ذلك من اضطرابات سياسية داخلية، وربما يرجع هذا أيضًا إلى كون أن حكام ليتوانيا عندما تقربوا من المعسكرين الغربي الكاثوليكي والشرقي الأرثوذكسي ودعم رجال الدين وكنائسهم من كل جانب؛ كان مجرد وعود من أجل خدمة المشاريع السياسية والتوسعية.

وبالتالي فإن جوجيلا Jogaila في عام ١٣٧٧م ورث هذه السياسة وورث معها دولة مترامية الأطراف، وهي كيانًا سياسيًا مؤلفًا من قوميتين قويتين، لكنهما مختلفتان اختلافًا كبيرًا، حيث هناك ليتوانيا العرقية الوثنية في الشمال الغربي، وأيضًا أراضيهم في روسيا الغربية الأرثوذكسية في الجنوب والشرق، وفي بداية حكمه قام جوجيلاً بتثبيت نظام الحكم المشترك الذي كان متبعًا في عهد والده أولجيرد، حيث استقر هو في حكم المناطق الجنوبية والشرقية، وترك أمر حكم الشمال الغربي لعمه كيستاتيس، ويعود ذلك لقوة الأخير داخل ليتوانيا، وتركيز جوجيلا على القضاء على الاضطرابات التي قامت داخل أملاكه في روسيا بين عامي ١٣٧٧ و ١٣٧٨م، حيث أعلن أندريه Andrei حاكم منطقة بولوتسك Polotsk في روسيا الغربية عدائه لأخيه جوجيلا، وأنه الأحق بحكم ليتوانيا، وسعى للسيطرة على منصب الدوق الأكبر للبلاد، وتحالف في سبيل ذلك مع ديمتري Dmitry حاكم موسكو، وردًا على ذلك دعم جوجيلا مامي أمير مغول القبيلة الذهبية، إلا أن الأخير هزم في معركة كوليكوفو Kulikovo عام ١٣٨٠م أمام قوات ديمتري حكام موسوكو، بعد فشل جوجيلا في تقديم المساعدات له، وبالتالي ترتب على هذه المعركة زيادة قوة موسكو في مواجهة ليتوانيا، وهو الأمر الذي دفع جويجلا لتحويل أنظاره ناحية الغرب، حيث بدأ خططه للتخلص من سيطرة عمه على حكم الشمال الغربي، والتصدي لهجمات الصليبيين(٦٠).

وفي حقيقة الأمر كان التيوتون الصليبيون على دراية بأفكار جوجيلا وسياسته تجاه القوى المسيحية الكاثوليكية في الغرب، والتي كانت أخف حدة وأقل عداوه، في الوقت الذي مثل عمه كيستاتيس عصر أولجيرد ومن سبقه من حكام ليتوانيا، والمتمثلة في عداوة الصليبيين، وتكرار الهجمات على أراضيهم، ولما كان كيستاتيس يجاور الصليبيين بحكمه للشمال الغربي من ليتوانيا، فقد أصبح العدو الأول للقوى الصليبية وعلى رأسها منظمة التيوتون، وذلك استمرت هجمات الصليبيين بقيادة التيوتون على أراضي ليتوانيا خلال الفترة (١٣٧٨ – ١٣٨٠م)، حتى وصلت الهجمات إلى العاصمة فيلنيوس نفسها، الأمر الذي حدا بكيستاتيس إلى طلب عقد الهدنة معهم، وهو ما تم في ٢٩ سبتمبر ١٣٧٩م ولمدة عشر سنوات، ولما كانت هذه الاتفاقية تحمي الأراضي المسيحية الواقعة تحت سيطرة ليتوانيا في الجنوب دون أراضي ليتوانيا الوثنية، التي استمر الضغط الصليبي عليها من جانب، ومن جانب آخر سعي جوجيلا للتخلص من سلطة ونفوذ عمه كيستاتيس، فقد واتت الفرصة للطرفين جوجيلا من جانب والصليبيين من جانب آخر للخلاص من كيستاتيس؛ حيث وقع جوجيلا مع وينريش كنبرود Winrich Kniprode مقدم التيوتون

اتفاقية سرية للتحالف ٣١ مايو عام ١٣٨٠م، الأمر الذي عجل باشتعال الحروب الأهلية داخل ليتوانيا عام ١٣٨١م، حيث أعلن كيستاتيس في فيلنيوس نفسه دوقًا لليتوانيا في نفس العام، ثم توفى –ربما عن طريق القتل، عندما قبض عليه جوجيلا- في العام التالي (١٣٨٢م)، واستمرت تلك الحروب عقب وفاته بقيادة ابنه فيتاوتاس Vytautas ضد جوجيلا؛ إلى أن عقد الصلح بين الطرفين عام ١٣٨٤م(٦١).

والواقع أن عقد هذه الاتفاقية يعد نجاح للتيوتون والصليبيين في مشاريعهم ضد ليتوانيا، حيث تسببت في اشتعال الحروب الأهلية بداخلها، وبالتالي إضعاف قوة ليتوانيا في مواجهة الصليبيين، وعلى الرغم من عدم وضوح شروط المعاهدة، التي منعت اعتداء كل طرف على الآخر، وفي الوقت نفسه ذكرت أنه إذا حدث اختراق عسكري لا ينقض شروط المعاهدة، كما حدث خلال عام ١٣٨١م عندما أغار التيوتون على مقاطعة تراكاي Trakai وأراضي ساموجيتيا، وقد فسر البعض أن الاتفاقية كانت تخدم جوجيلا في حربه ضد عمه كويستاتيس، بوقوفهم على الحياد أثناء تلك الحرب؛ والبعض الآخر يرى أن مقصد جوجيلا من عقد هذه الاتفاقية هو ضمان عدم اعتداء الصليبيين على أراضيه أثناء وجوده في الشرق للقضاء على ثورة شقيقه أندريه عام ١٣٨٠م، إلا أنه في الواقع قد دفعت الاتفاقية جوجيلا نحو السير في فلك الصليبيين، وبالتالي خدمة مشروعهم، الرامي إلى نشر المسيحية داخل ليتوانيا، وضمها تحت سيطرة القوى المسيحية وخاصة ألمانيا(٦٢).

وما يأتي دليلاً على ذلك هو استغلال التيوتون لأية فرصة من أجل الضغط على جوجيلاً لتقبل المسيحية وإعلان تبعيته لهم، فعندما صرف جوجيلاً انتباهه إلى الشرق عقب تأمينه للجبهة الغربية بتخلصه من عمه كويستاتيس عام ١٣٨٢م؛ قام التيوتون باستغلال فرار فيتاوتاس نجل الأخير إليهم في حصن مارينبرج – معقل التيوتون- بعد وفاة والده، وعقدوا معه تحالفًا حيث بعد أن تم تعميده هناك، وربما وعدوه بتولي حكم ليتوانيا بعد التخلص من جوجيلا، وأمام ذلك وجد الأخير نفسه مضطرًا إلى الدخول في مفاوضات من أجل عقد معاهدة للتحالف والسلام مرة أخرى مع التيوتون بقيادة مقدمهم كونراد Conrad، وبدأ ذلك في ٣١ أكتوبر عام ١٣٨٢م، ذكر أنها من أجل مكافأة التيوتون على دورهم في التخلص من عمه كيستاتيس، إلا أنه في حقيقة الأمر كان مجبرًا على ذلك؛ نظرًا للاضطرابات داخل ليتوانيا شرقًا وغربًا من جانب، وقوة الصليبيين بقيادة التيوتون وتهديدهم لجوجيلا بعزله وتعيين فيتاوتاس بدلاً عنه، وقد انتهت المفاوضات على أن تضم الاتفاقية عدة شروط منها : وعد جوجيلا بقبول المسيحية وتحيل ليتوانيا من الوثنية إلى المسيحية في غضون أربع سنوات، والتنازل عن إقليم ساموجيتيا – الذي كان يمثل يقف حائلاً بين وحدة أراضي التيوتون في كل من بروسيا وليفونيا- للصليبيين بقيادة التيوتون، بعد سيطرة دامت ١٠٠ عام، وأن يكون هناك تحالفًا عسكريًا لمدة أربع سنوات، وأن

يساعد كل طرف الآخر في حروبه ضد أعدائه، كما وعد جوجيلا بعدم شن أية حرب في المنطقة الغربية دون موافقة التيوتون، ونتيجة لعدم تصديق جوجيلا وتوقف المحادثات بين الجانبين؛ أعاد التيوتون غزوليتوانيا في ٣٠ يوليو عام ١٣٨٣م، فتواصل جوجيلا مع فيتاوتاس وأقنعه بترك جانب التيوتون والتحالف معه ضدهم ووعده باستعادة أملاك أبيه كيستاتيس، وبالتالي عقد الصلح بين الاثنين في صيف عام ١٣٨٤م، ومن ثم انقلب فيتاوتاس على التيوتون وهاجم عدة قلاع لهم في بروسيا(٦٣).

وبالرغم من أن هذه التحركات الأخيرة لجوجيلا وإن كانت قد ضمنت له الهدوء على مستوى الجبهة الداخلية في الشمال الغربي لليتوانيا، من خلال التحالف مع فيتاوتاس؛ إلا أن جوجيلا كان عليه مواجهة خطر محاولات الانفصال في الجنوب الشرقي حيث أملاكه في روسيا الغربية من جانب، ومن جانب ثان عليه مواجهة خطر الصليبيين بقيادة التيوتون على الحدود الغربية، وأخيرًا عليه التصدي لتهديدات المعسكر الأرثوذكسي الشرقي، الذي كان يطمع هو الآخر في تعميد جوجيلا وليتوانيا على مذهبه.

ومن ثم فقد وقع جوجيلا بين مطرقة الصليبيين الكاثوليك وسندان الروس الأرثوذكس، وكان عليه الاختيار الميل إلى إحداهما، إما الحضارة الغربية أو الحضارة الشرقية، وفي الواقع حاولت والدته أوليانا Uliana صاحبة المذهب الأرثوذكسي والأصول الروسية التأثير عليه بقبول الأرثوذكسية ورفض الكاثوليكية كدين ومذهب له ولبلاده (ليتوانيا)، وفي الوقت نفسه وجد جوجيلا نفسه أمام عرض تقدم به نبلاء بولندا –خدمة لمصالحهم في المقام الأول- عام ١٣٨٥م بالزواج من وريثة العرش البولندي جيدويجا Jadwiga -عقب انفصال العرشين البولندي والهنغاري بوفاة ألكسندر ملك هنغاريا- ودمج الدولتين في اتحاد واحد، وذلك بشرط قبوله المسيحية على المذهب الكاثوليكي، ولما كان جوجيلا يعلم بأنه في حالة اختياره للمذهب الأرثوذكسي؛ فإن هذا لن يوقف الحروب الصليبية ضد ليتوانيا من قبل التيوتون هذا من جانب، ومن جانب آخر هو يرى أن التحالف مع بولندا سوف يضمن له السيطرة على هذا الإقليم، الذي سيقوى من موقف ليتوانيا في مواجهة أطماع التيوتون، التي من المعرف أنها لن تتوقف قبل ضم ليتوانيا إلى ألمانيا وليس إدخالها في المسيحية فقط؛ وبالتالي أعلن جوجيلا في ١٤ أغسطس عام ١٣٨٥م قبول الزواج من جيدويجا، وقبول المسيحية على المذهب الكاثوليكي، والوعد بإعادة أراضي بولندا المستولى عليها من قبل جيرانها، وكذلك العمل على دمج وتوحيد البلدين تحت تاج واحد، وقد تم تعميد جوجيلا على المذهب الكاثوليكي في بولندا في ١٥ فبراير عام ١٣٨٦م، وأعقب هذا إتمام الزواج بين جوجيلا وجيدويجا، ثم أعلن ملكًا على اتحاد ليتوانيا-بولندا في ٤ مارس عام ١٣٨٦م تحت اسم لادسلاس الثاني Wladyslaw II (١٣٨٦ – ١٤٣٤م)(٦٤).

وبالتالي فإن زواج جوجيلا من جيدويجا وريثة عرش بولندا وقبوله المسيحية الكاثوليكية يعد أمرًا على جانب عظيم من الأهمية، وذلك لما ترتب عليه من آثار ليس فقط داخل ليتوانيا أو بولندا؛ وإنما في منطقة البلطيق بأكملها، فمنذ دخول ليتوانيا في خضم الحروب الصليبية الشمالية وهى تمثل رأس حربة للمعسكر الوثني، وتلقت أوجع الضربات من القوي الصليبية وعلى رأسهم التيوتون، وبالرغم من ذلك فقد ظلت صامدة في وجه هذا العدوان؛ بل ونجح حكامها في توسيع أملاكهم غربًا ثم شرقًا، حتى وصلت إلى البحر الأسود وحوض الدنيبر، وظل هذا الوضع حتى عام ١٣٨٦م، وهو العام الذي قبل فيه جوجيلا المعمودية الكاثوليكية، وتلاه تحول ليتوانيا من الوثنية إلى المسيحية، والذي بدأ في الانتشار خلال العام التالي (١٣٨٧م)، وبالتالي كان جوجيلا آخر حاكم وثني في ليتوانيا في العصور الوسطى، وبالرغم من أن دخول ليتوانيا في المسيحية قد اثلج صدر البابوية، وحد من عداء القوى المسيحية الغربية لها؛ إلا أنه لم يوقف عداء التيوتون، الذين لم يعنيهم تحول جوجيلا ودولته إلى المسيحية، وإنما الذي كان يعنيهم هو توسيع أملاكهم وأملاك ألمانيا في شرق أوربا بصفة عامة وعلى حساب ليتوانيا وبولندا بصفة خاصة، ليبدأ فصلاً جديدًا في الصراع بين ليتوانيا والتيوتون، ولكن هذه المرة قد تغيرت المعطيات، حيث أصبحت ليتوانيا قوة مسيحية تحارب من أجل أراضيها ضد أطماع قوة مسيحية أخرى، هي قوة التيوتون الألمان، الذين سعوا نحو احتلال هذه الأراضي[٦٥].

نتائج البحث:

- يأتي هذا الدور من النزاع بين القوى الوثنية متمثلة في ليتوانيا وبين القوى المسيحية متمثلة في الجانب الصليبي وعلى رأسه البابوية والمنظمات الدينية ومنها التيوتون، ليؤكد على حقيقة مهمة تتمثل في عدم علاقة الدين بهذه الحروب الدامية، التي تسببت في هلاك الآلاف من البشر بين صفوف جميع القوى المتنازعة، وأن الأسباب الاقتصادية والسياسية والعرقية على وجه الخصوص تأتي في المقدمة من حيث أسباب الحروب الصليبية الشمالية، وليس أدل على ذلك من استمرار الحروب من قبل التيوتون ضد ليتوانيا؛ رغم تحولها من الوثنية إلى المسيحية، وبالتالي فإن الدين ليس له دخل في هذه الحروب التي تغلفت بغلاف الدين، وهذا ما ينطبق على الأديان الآن من اتهامات بالتسبب في اندلاع موجات العنف على المستوى العالمي، وهي بريئة من هذه الاتهامات.
- بالرغم من النشأة الضعيفة لليتوانيا كدوقية صغيرة على ضفاف نهر نيمين في منطق البلطيق، ومعاناة هذه الأمة من الحروب الأهلية بين القبائل الليتوانية، وكذلك مواجهتها للعدوان الصليبي المتكرر طوال شهور السنة وعلى كافة المناطق الليتوانية؛ إلا أنه هذه الأمة نجحت بفضل حكامها في نهاية الأمر من إنشاء دولة مترامية الأطراف

وصلت حدودها من بحر البلطيق غربًا حتى البحر الأسود شرقًا، بما في ذلك روسيا لغربية وحوض الدنيبر، وذلك على حساب قوى يأتي في مقدمتهم الروس والمغول.

- تمكنت ليتوانيا بفضل هذا التوسع من امتلاك قوة اقتصادية وعسكرية كبيرة؛ مكنتها من الاستمرار في الحروب على كافة الأصعدة، سواء أكانت هذه الحرب ضد الجانب الصليبي أو ضد المغول أو ضد الروس، وحتى من أجل القضاء على الحروب الأهلية التي واجهت حكام ليتوانيا في الداخل.
- كان نظام الحكم داخل ليتوانيا نظامًا مركزيا، على رأسه الدوق الأكبر، وبالتالي فهي عرفت بدوقية ليتوانيا الكبرى طوال العصور الوسطى، على الرغم من وجود محاولة لتحويل نظام الحكم إلى النظام الملكي، خلال عهد ميندوجاس، الذي استمر خلال الفترة بين عامي (١٢٥٣ – ١٢٦٣م)، وعقب ذلك فشلت كل المحاولات من جانب حكام ليتوانيا للعودة إلى النظام الملكي حتى نهاية العصور الوسطى، وربما يرجع ذلك لطبيعة تكوين شعب ورعايا ليتوانيا، المتمثلة في القبائل الليتوانية والرعايا الكاثوليك والأرثوذكس، الذين رفضوا وجود النظام الملكي، خشية لتحول الملوك إلى الديكتاتورية.
- يأتي ضمن عوامل نجاح حكام ليتوانيا في الحفاظ على دولتهم من الاندثار تحت جحافل القوات الصليبية أو قوات المغول وكذلك الروس؛ استغلالهم بشكل أمثل للمصالح الدولة في تلك الفترة، وذلك عبر الدبلوماسية التي اتبعها هؤلاء الحكام، فهم دخلوا في تحالفات مع البابوية والقوى المسيحية الكاثوليكية في الغرب وقدموا لهم الوعود بتحويل ليتوانيا وشعبها إلى المسيحية على مذهبهم، في الوقت الذي حالفوا فيه الأرثوذكس في الجهة الشرقية وقدموا لهم نفس الوعود، وبالتالي تمكن هؤلاء الحكام من السيطرة على الداخل، وفي الوقت نفسه الانطلاق نحو توسعة أملاك ليتوانيا في الخارج.
- نجحت ليتوانيا في خلال نضالها ضد العدوان الصليبي في خلال الفترة (١٢٣٦ – ١٣٨٧م) في أن تبادل هذا العدوان الضربات والحملات العسكرية، بل ونجحت في القضاء على قوة فرسان السيف بعد معركة سول عام ١٢٣٦م عند البداية الحقيقية لدخولها الحرب، وأيضًا ساهمت في وقف تقدم فرسان التيوتون الألمان في منطقة البلطيق شرقًا.
- مثل عام ١٣٨٧م عامًا فارقًا في تاريخ ليتوانيا، ليس فقط كونه العام الذي تحققت فيه الوحدة بين أقوي قوتين في منطقة البلطيق ليتوانيا وبولندا، أو ما يتعلق بكونه العام الذي بدأت فيه شعلة الانتشار الحقيقي للمسيحية بين صفوف القبائل الليتوانية؛

وإنما نقل ليتوانيا من حمل لواء الوثنية والدفاع عنها إلى حمل لواء المسيحية الكاثوليكية في مواجهة الوثنية من جانب والأرثوذكسية من جانب آخر، خاصة وأن اختيار جوجيلا للكاثوليكية قد وضع حدً فاصلاً بينه وبين رعاياه الأرثوذكس بصفة خاصة، وبينه وبين القوي المسحية الأرثوذكسية خارج ليتوانيا بصفة عام.

الهوامش

(١) فيشر (هـ. أ. ل) (١٩٥٤)، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ق ٢، ترجمة محمد مصطفى زيادة وأخرون، دار المعارف، ص ٤١٤.

(٢) كان تشكيل ونشأة ليتوانيا موضع اهتمام المؤرخين لفترات طويلة، والإشكالية تنشأ عند البحث عن أول ذكر لدوقية ليتوانيا في المصادر التاريخية وعن وضعها في فترات ما قبل التاريخ، غير أن المعلومات المتعلقة بالمجتمع الليتواني في تلك الأوقات كانت لا تزال ضئيلة، وهو ما كان يقف حجرة عثرة أمام المؤرخين، ويجعل هذه المشكلة معقدة إلى حد كبير، وبالتالي يصعب على الباحثين التوصل إلى استنتاجات غير قابلة للجدل، ولما كانت المصادر المكتوبة عادةً ما تحتوي على تلميحات غير رسمية وغامضة، ويتم تفسيرها وفقًا لمختلف الآراء النظرية أو ببساطة وفقًا لخيال المؤرخ، وفي سبيل التغلب على ذلك فعلى الباحثين حول نشأة الدولة الليتوانية الاعتماد على الآثار الموجودة التي تؤرخ لبداية تاريخ الدولة وبالتالي ضرورة البعد عن الخيال والاعتماد على الأساطير المذكورة بين طيات المصادر المكتوبة، وعلى ما تقدم يتضح أنه بالنظر لتعريف مفهوم الدولة؛ فإن تاريخ الدولة الليتوانية يبدأ مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، من حيث التنظيم السياسي والعسكري والتوسع على حساب القوى المجاورة وعقد المعاهدات .... وغير ذلك من صور وجود الدولة، وبالتالي فإن البحث في نشأة الدولة الليتوانية مستحيل بدون مساعدة علم الآثار، وبالتالي فمن الواجب تفسير البيانات الأثرية – مثل الفخار وغيره من الآثار- التي تتعلق بالفترة ما بين عام ١٣٠٠ ق.م حتى عام ١٢٠٠م، من خلال المقارنة مع المجتمعات الأخرى في مراحل مماثلة لتطور ليتوانيا، مثل المقارنة مع شعوب البلطيق الأخرى وكذلك شعوب السلاف والجرمان والشعوب البدائية، وتلك هي الطريقة العلمية التي تؤرخ لنشأة الدول، وفي سياق ذلك يأتي ما ذكره المؤرخ "م. ستراپكوفسكي Maciej Stryjkowski، في حوليته؟ عندما ذكر أن الشعب الليتواني ظل غير منظم يعيش في الغابات حتى بداية القرن الحادي عشر الميلادي، بقوله : "كانوا متوحشين يعيشون في الغابات" ويُردف بأن أول من حمل لقب دوق ليتوانيا هو كيرنيوس "Kernius"، الذي تعود أصوله إلى أسرة إيطالية، -ضمن الأسر الإيطالية التي هاجرت إلى ليتوانيا خلال القرن الأول قبل الميلاد- وقد وصل إلى حكم ليتوانيا عام ١٠٤٠م، – وهو العام الذي هزمت فيه جيوش القبائل الليتوانية على يد ياروسلاف yaroslav حاكم مملكة كييف الروسية، وهو أول ذكر لليتوانيا في المصادر الروسية :C.F The Russian Primary chronicle, (1953), trans. and ed. by Cross (S.) and Wetzor (O.), (Cambridge), p.138. – ثم يردف ستراپكوفسكي حول أول من حمل لقب دوق ليتوانيا الكبرى وساموجيتيا "Samogitia" وروثينيا "Ruthenia" هو ريمجاوداس "Rimgaudas"، وذلك عام ١٢١٩م، ومن ثم فإن البداية الحقيقية لدوقية ليتوانيا الكبرى هو بداية القرن الثالث عشر الميلادي، وعلى أية حال فإن عملية تأسيس وظهور ليتوانيا شهدت خلافًا بين المهتمين بدراسة تاريخ هذه الدولة، وفي الواقع أن ليتوانيا كمثل غيرها من دول شرق أوربا عامة ودول بحر البلطيق خاصة، مرت بفترة تاريخية طويلة خلال عملية النشأة والظهور، ويرجع ذلك من وجهة نظر الباحث إلى تاريخ الشعب الليتواني نفسه، الذي دأب على التنقل باستمرار بين شرق ووسط أوروبا، وكذلك لظروف المناطق التي تنقلت بداخلها تلك الشعوب، التي تميزت بكثرة الحروب والصراعات، ومن ثم وبعد سلسلة من الهجرات وأيضاً الحروب التي عاشها الشعب الليتواني خلال الفترة من بداية القرن الحادي عشر وحتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي؛ تمكن الشعب الليتواني من خلق كيان له على الضفة الشرقية الجنوبية لبحر البلطيق، بل وحكم شعوبًا كانت أقوى منه في مراحل سابقة مثل الروس والبولنديين وغيرهم.

وبالتالي فإن ظهور ليتوانيا كقوة سياسية، لها نظام حكم موحد، ولها تأثير واضح على مسرح الأحداث؛ بدأ مع ظهور الأسرات الحاكمة، بدءًا من أسرة ميندوجاس Mindaugas خلال الفترة (١٢٣٦ – ١٢٨٥م)، مرورًا بأسرة جيديميناس Gediminas خلال الفترة (١٢٨٥ – ١٤٤٠م)، وهي الفترة التي شهدت وحدة القبائل الليتوانية، والتوسع على حساب القوي المجاورة، وأخيرًا الاتحاد الليتواني البولندي، وعلى رأس كل ذلك قيادة ليتوانيا للمعسكر الوثني خلال الحروب الصليبية الشمالية في حوض بحر البلطيق C.F: Stryjkowski M., (1846), Kronika polska, litewska,

żmódzka i wszystkiéj Rusi Macieja Stryjkowskiego, (Warszawa), pp.65-96.

(3) Lithuania, past and present, (1965), (American Lithuanian Literary Association, New York), pp.19-21; Cambridge Medieval History, vol.7, ed. by Bury J. B. (1932), Cambridge University Press (Cambridge), p.614; Dahmus J., (W.D.), Dictionary of Medieval Civilization, (Collier Macmillan Publishers, London), p.439.

وأنظر: فشر هـ. (١٩٥٤)، المرجع السابق، ص ٤١٤.

(٤) عصبة الهانزه : اتحاد بين تجار ومدن شمال ألمانيا وعدد من المدن في مناطق أوربا الشمالية الأخرى، بقيادة مدينة لوبك Lupeck وهامبورج وكولن Culen، هدف إلى السيطرة على تجارة شمال أوربا، ويعود تاريخ تأسيسه لعام ١١٥٧م، وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر سيطر الاتحاد على تجارة بحر البلطيق، الأمر الذي مكنه من حجز مكان مهم في تجارة شمال وغرب أوربا، وبحلول عام ١٢٩٣م انقسم هذا الاتحاد وتفرع عنه عدد من الاتحادات التجارية، في لندن وبروج Bruges والبلطيق :C.F Dahmus J., (W.D.), p.349.

(5) Eidintas A., & Others, (2015), The History of Lithuania, p.15; Dahmus J., (W.D.), p.439.

(6) Eidintas A., & Others, (2015), pp.15-16.

(7) Jusaitis K. A., (1918), History of the Lithuanian nation, (A. Milukas & Company, Philadelphia), pp.46-48; Lithuania, past and present, (1965), pp.17-18; Plakans (A.), A Concise History of the Baltic States, Cambridge University Press (Cambridge, 2011) pp.10-12.

(8) Chronicon Quedlenburgense (Annals of the Abbey of Quedlinburg) (MS. No. 30625), ed by Albinus, Petrus, Anne (MIX), p.31.

(9) Jusaitis K. A., (1918), pp.11-13; Dziarnovič J., "Lithuanian Language in the grand duchy of Lithuania", *Belarusian Political Science Review, Volume 2,* (Belarusia – online), pp.46-48.

(10) Eidintas A., & Others, (2015), pp.16-18.

(11) Shumaker D.R., (2014), The Clash between Pagans and Christians: The Baltic Crusades from 1147-1309, (The Ohio State University – Ohio), p.1.

(١٢) (١٩٥٨) أوربا في العصور الوسطى، ترجمة عبدالحميد حمدي محمود، (منشأة المعارف – الإسكندرية)، ص ١٨٢-١٨٣.

(13) Christiansen E., (1997), The Northern Crusades, (Penguin Books – London), pp.50-51.

وفي حقيقة الأمر فإن عصر حروب الحدود ومستعمراتها قد بدأ قبل انبلاج الروح الصليبية الحقيقة بردح طويل، ويندرج ضمن هذه الحروب حملات قادة الفرنجة كل من شارل مارتل وبيبين القصير ثم شارلمان ضد الشعوب المجاورة لأراضي الفرنجة، حيث أجبر بيبين القصير شعوب السكسون على دفع الجزية عام ٧٥٨م، وتلا ذلك حملات شارلمان ضدهم عام ٧٧٢م، وذلك رداً على توقفهم عن دفع الجزية المقررة عليهم، ومن خلال حملة شارلمان الأول نجح في أن يخضع قبائل الأنجاريان السكسونية، وأستولى على مركزهم الحصين في أوجسبورج، وشيد بها كنيسة من أجل نشر المسيحية بين هذه الشعوب، التي استغلت انشغاله بحملته ضد اللمبارديين عام ٧٧٣م فقاموا بالثورة واستولوا على أوجسبورج وطردوا الحامية الفرنجية منها وخربوا القرى والحصون حتى حدود الراين وحطموا كل الكنائس التي صادفوها في طريقهم، فعاد شارلمان لقتالهم من جديد عام ٧٧٥م، وفرض عليهم يمين الولاء والطاعة، ويأتي على رأس الأسباب التي دفعت شارلمان لشن حملاته ضد السكون هي رغبته في نشر المسيحية بين تلك القبائل التي كانت لا تزال على الوثنية، وفي سياق ذلك يذكر اينهارد مؤرخ عصر شارلمان : ***"انتهت هذه الحرب التي دامت سنين عديدة، بقبول السكسون للشروط التي عرضها الملك (شارلمان) عليهم، والتي تشتمل على تخليهم عن أعرافهم***

الدينية القومية وعبادة الشياطين وبقبول طقوس العقيدة المسيحية والدين المسيحي ومن ثم الاتحاد مع الفرنجة لتكوين شعب واحد" ، أنظر : اينهارد (١٩٨٩): سيرة شارلمان، ترجمة وتقديم عادل زيتون، (دار حسان – دمشق)، ص ٦٥ – ٧٠؛ وللمزيد عن انتشار المسيحية والكنائس في شمال وشرق ألمانيا، والنزاع الذي دار بينها وبين الوثنية في منطقتي البلطيق والدول الإسكندنافية، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بتاريخ الوثنية فيما يعرف بعصر الفايكنج في شمال ووسط أوربا، راجع ما كتبه الأسقف آدم أف بريمين بعنوان "أعمال أساقفة هامبورج"، والذي يغطي الفترة التاريخية الواقعة بين عام ٧٨٨م وحتى عام ١٠٨٥م تقريبًا: C.F: Bremensis A., (1876), Gesta Hammaburgensis ecclesiae pontificum, (Impensis Bibliopolii Hahniani, Hannoverae).

وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية الشمالية (البلطيقية) قد تزامنت مع الحروب الصليبية في الأراضي المقدسة، وذلك مع بداية قدوم الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩) إلى الشرق الإسلامي؛ إلا أنها استمرت حتى القرن الخامس عشر الميلادي، على عكس الحرملات الصليبية على الشرق التي خفت نجمه مه نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، و علاوة على ذلك فإن الحروب الصليبية الشمالية قد خرجت من أجل محاربة القبائل الوثنية المقيمة على ضفاف بحر البلطيق، وكانت تتم عادة بواسطة النبلاء الألمان والدنمارك (بمساعدة من حين إلى آخر من السويد)، على غرار ما قامت به الوحدات العسكرية من إنجلترا وفرنسا خلال الحروب الصليبية على الشرق الإسلامي، وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية البلطيقية وقعت في العديد من البلدان المختلفة وعلى مدى عدة قرون؛ إلا أنها وقعت كنتيجة لعدد من الأسباب مشتركة، يأتي على راسها بطبيعة الحال العامل الديني، فهي حروب خرجت ضد الوثنيين في المقام الأول، وكذلك كان جزءً منها حروب بين الكاثوليك والأرثوذكس، ومن بينها أيضًا تغير روح الفروسية مع زيادة الحماس الديني، وكذلك تغير أيديولوجية المنظمات المشاركة في تلك الحروب؛ إلى محاربة الوثنيين والأرثوذكس في منطقة البلطيق بدلًا عن محاربة المسلمين في الشرق، وأخيرًا تأتي أطماع نبلاء الشمال الأوروبي الاقتصادية في منطقة البلطيق على رأس تلك الأسباب، من أجل توسيع رقعة أملاكهم في مناطق جديدة علي ضفاف بحر البلطيق، وذلك على الرغم من سيطرة منظمة الفرسان التيوتون على الحروب الصليبية البلطيقية، وانخراطها في الصراع المستمر على السلطة داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، C.F: Bosau (Helmold of), (1868), Chronica Slavorum, ed. by Pertz (G.), (Impensis Bibliopolii Hahniani, Hannoverae), pp.119-120; Busalacchi (P.), (2010), Pagans by Comparisons: Medieval Christian and Muslim Constructions of the Pagan "Other", in (A Journal of Historical Inquiry, Vol.37), (Los Angeles), p.20; Christiansen E., (1997), pp.51-57.

(14) The Chronicle of Duke Erik, (2012), Trans by Carlquist (E.) and Hogg (P.), (Nordic Academic Press, Lund), pp.91-101; Bosau (Helmold of), pp.138-140; Lübeck (Arnoldi of), (1868), Chronica Slavorum, (Impensis Bibliopolii Hahniani, Hannoverae), pp.156-161; Lettus (H), (1874), Henricus Chronicon Livoniae, (Impensis Bibliopolii Hahniani, Hannoverae), pp. 2-4, 12-14; Christiansen E., pp.50-55, 65-70, 93-113; Busalacchi (P.), p.25.

(15) Bosau (Helmold of), pp. 119-138; Shumaker D.R., (2014), pp.1-2.

(١٦) فرسان السيف : هي منظمة عسكرية رهبانية تم تأسيسها عام ١٢٠٢م من قبل ألبرت الأول اسقف مدينة ريجا في دوقية ليڤونيا، وعرفوا بمنظمة إخوان السيف الليفونيين، كان دورهم نشر المسيحية بين قبائل البلطيق والسلاف الوثنيين، داخل المناطق الجنوبية لبحر البلطيق، وقد تعرضوا للهزيمة على يد الليتوانيين عام ١٢٣٦م، ثم تم دمجهم مع منظمة الفرسان التيوتون بعد ذلك، وكانوا يرتدون الروب الأبيض الذي رسم عليه الصليب والسيف باللون الأحمر، C.F: Dahmus (J.), p.440.

(١٧)التيوتون : منظمة دينية عسكرية رهبانية من الفرسان الألمان، تم تأسيسها عام ١١٩٧م للدفاع عن الأراضي الصليبية بالشرق ضد المسلمين، على نمط منظمات رهبانية عسكرية أخري، مثل الإسبتارية والداوية، وعندما أحس أحد مقدمي هذا التنظيم وهو هرمان أف سالز Herman Of Sales (١٢١١ – ١٢٣٩م) بقلة الجدوى من نشاط التيوتون بالشرق، لذا حول جهود أولئك الفرسان نحو الحرب ضد الوثنية الضاربة في شرق ألمانيا وفي حوض بحر البلطيق، وكان أول ظهور للفرسان

التيوتون في الحروب الصليبية الشمالية في منطقة البلطيق خلال الحروب الصليبية ضد بروسيا Prussian، وذلك بعد فشل المشاريع الصليبية التي خرجت من بولندا ضد بروسيا، التي بدأت منذ عهد بولسلاف الرابع Bolesław IV دوق بولندا (١١٤٧ – ١١٧٣م)، الذي فشل في فرض سيطرته على بروسيا؛ نتيجة عدم نجاحه في التصدي لحرب العصابات التي فرضتها القبائل البروسية، لكن خلفه كازيمير الثاني (١١٧٧ – ١١٩٤م) نجح في فرض اتفاقية السلام فيما بينه وبين بروسيا، بعد سلسلة من الحملات العسكرية، وشاركت بعدها بولندا في دعم البعثات التبشيرية داخل بروسيا، لنشر المسيحية بالطرق السلمية، ومن ذلك ما قام به دوق بولندا فلادسلاف الثالث Władysław II (١٢٠٢ – ١٢٢٩م) عام ١٢١٥م من تقديم الدعم لبعثة الأسقف كريستيان أوليڤا التبشيرية إلى بولندا، الذي فشل في مهمته، نتيجة لغزوات البروسيين الوثنيين على المقاطعات المسحية داخل بروسيا مثل تشيمنو وماسوفيا وبومريليا ولوباوا، واجبروا المسيحيين الجدد على العودة للوثنية من جديد، الأمر الذي اضطر أمامه البابا هونوريوس الثالث Honorius III إلى إصدار مرسوم بابوي في ١٢١٧م لكريستيان أوليڤا، من أجل الدعوة لحملة صليبية جديدة ضد بروسيا، وصلت إلى بروسيا بقيادة الأسقف كريستيان عام ١٢٢٢م، ولم تحقق النجاح المرجو منها، فعقب تجديد التحصينات داخل مقاطعة كولمرلاند Culmerland وموسوفيا Masovia دمر البروسيون هاتين المقاطعتين مرة أخرى، الأمر الذي اضطر كونراد الأول Conrad I دوق بولندا (١٢٢٩ – ١٢٣٢م) ومعه الأسقف كريستيان إلى تأسيس منظمة فرسان دوبرزين Order of Dobrzyń الألمان حوالي عام ١٢٢٥م؛ الذين ضموا إليهم البروسيين المسيحيين من كولمرلاند، للتصدي لتمرد البروسيين الوثنيين، ونتيجة لفشل فرسان دوبرزين في صد تمرد البروسيين استعان الأسقف كريستيان أوليڤا عام ١٢٢٦م بالفرسان التيوتون بقيادة هيرمان أف سالز Hermann von Salza (١٢٠٩ – ١٢٣٩م)، وذلك بدعم من كونراد الأول دوق بولندا، الذي أراد استغلال التيوتون في فرض سيطرته على بروسيا، وبدوره سعى هيرمان إلى استغلال فرصة الحرب ضد بروسيا؛ من أجل زيادة مكاسب منظمة التيوتون، وتوسيع أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهو ما أقنع به هيرمان إف سالز الإمبراطور فردريك الثاني عندما اجتمع به في ريميني Rimini، ومنح فردريك منظمة التيوتون منطقة كولمرلاند وأي فتوحات مستقبلية، وهي بداية سيطرة فرسان التيوتون على الحركة الصليبية في منطقة البلطيق، التي بدأت بتوقيع معاهدة كروسڤيكا Kruszwica بينهم وبين كونراد الأول دوق بولندا في يونيو عام ١٢٣٠م، وهى تأكيد لما جاء بمرسوم فردريك الثاني في ريميني عام ١٢٢٦م، وكذلك مرسوم البابا جريجوري التاسع Gregory IX في ريبتي Rieti عام ١٣٣٤م، وكلها جاءت لتؤكد على أحقية منظمة التيوتون في الحكم الذاتي داخل الأراضي التي يسيطرون عليها على ضفاف البلطيق، وقد بدأت الحملات الصليبية لفرسان التيوتون داخل البلطيق عام ١٢٣٠م، وكانت عبارة عن فرق استطلاعية مكونة من ٢٠ فارس وعدد من الجنود يتراوح ما بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ جندي بقيادة كونراد فون لاندسبيرج Conrad von Landsberg، نجحوا في بداية الأمر في إنشاء حصن وقلعة في منطقة فوغيلسانغ Vogelsang، التي تقع جنوب نهر فيستولا Vistula، وبالتالي ركز التيوتون خلال المرحلة الأولى على إنشاء حصون على طول نهر فيستولا، قاموا بحملات سنوية كلما وصل الفرسان الصليبيون من الغرب، وفي الواقع أن منظمة فرسان التيوتون كان لديها مشروع سعت لتنفيذه من خلال مشاركتها في الحملات الصليبية ضد الوثنيين في البلطيق؛ يتمثل في خدمة مشاريع البابوية في نشر المسيحية الكاثوليكية، وكذلك خدمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة عبر توسيع أملاكها ناحية الشرق في حوض البلطيق، والأهم من ذلك الاستحواذ على الدور الرئيسي للحركة الصليبية في حوض البلطيق، وكذلك احتواء أدوار القوي السياسية والمنظمات الدينية الأخرى، فبحلول عام ١٣٣٢م نجح فرسان التيوتون في إنهاء المقاومة البروسية في كولمرلاند، وأعادوا بناء قلعتها، ونتيجة ذلك دعا البابا جريجوري التاسع بضرورة توجيه تعزيزات للتيوتون من أجل استكمال فتح بروسيا، فتمكن التيوتون من قيادة جيشًا صليبيًا قوامه ١٠٠٠٠ مقاتل هاجموا من خلاله مقاطعة بوميسانيا Pomesania، وأسسوا حصنًا في مارينفيندر Marienwerder، ونتيجة للنجاحات الأخيرة تمكنت منظمة التيوتن من الاستحواذ على أراضي وقلعة منظمة فرسان دوبريزي، وذلك من خلال المرسوم البابوي الصادر في ١٩ أبريل ١٢٣٥م، وبنفس الطريقة استحوذ التيوتون على ما تبقي من أملاك لمنظمة فرسان السيف في ليفونيا عام ١٢٣٧م، وذلك بعد أن تم القضاء على قوتها من قبل الليتوانيين في معركة سول عام ١٢٣٦م، وخلال عام ١٣٠٩م تم نقل المقر الرئيسي للتنظيم من البندقية إلى مارنبورج، ليتفرغ

التيوتون للحرب ضد الوثنيين في البلطيق، وينقطع خط الصلة بينهم وبين الأراض المقدسة وكذلك جنوب أوربا، وظلوا في هذا النضال حتى ضعف التنظيم عام ١٤٦٦م عندما عقد صلح ثورن Thorn مع بولندا، التي تفوقت عليهم. C.F: Tanner (J.) and Others (Ed.), (1332) The Cambridge Medieval history, vol.7, (Cambridge), pp. 246 – 266;

ولمزيد من التفاصيل عن منظمة فرسان التيوتون ودورها في الحروب الصليبية في البلطيق، راجع: محمد السيد (٢٠٠٧)، منظمة فرسان التيوتون في شرق أوربا، دراسة في التاريخ السياسي والعسكري (١٢٢٦ – ١٤٦٦م)، (رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة سوهاج)، (سوهاج)، حسن عبدالوهاب (١٩٨٩)، تاريخ جماعة الفرسان اليتوتون في الأراضي المقدسة، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية).

(18) Cambridge Medieval history, vol.7, pp.245-255.

(19) The Galician-Volynian chronicle, (1973), ed. and trans. by Perfecky (G.), (Harvard), pp.24-25.

(20) Ibid, pp.25-27.

(21) The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), Trans. by Michell (R.) and Forbes (N.), (London), pp.42-62; Markman (C.), (2016), Mindugas and the Image of Lithuanians in the medieval chronicles, (California), p.6.

(22) The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.51-52; Markman (C.), (2016), pp.22-26.

(23) The Galician-Volynian chronicle, pp.27-28.

(24) Eidintas A., & Others, (2015), p.21.

(25) Wartberge (H.), (1863), Chronicon Livoniae, ed. by Strehlke (S.), (Leipzig), pp.23-25; Lettus (H), pp.212-215.

(26) Ibid, pp.25-26.

(27) Wartberge (H.), p.26; Turnbull (S.), (2004), Crusader Castles of the Teutonic Knights (2) The stone castles of Latvia and Estonia 1185-1560, (Oxford), pp.15-16.

(28) The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.82-86; The Galician-Volynian chronicle, pp.45-54.

(29) The Galician-Volynian chronicle, pp.55-58; The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.91-92.

(30) The Galician-Volynian chronicle, pp.59-61.

(31) Ibid, pp.62-64.

(32) Ibid, pp.65-68.

(33) Two Papal Bulls of 6 March 1255, Issued by Alexander IV for King Mindaugas of Lithuania, (2003), Ed. And trans by Rowell (S.), in (Lithuanian Historical Studies, vol.8) (Vilnius), pp.145-147; The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.93-94.

(34) Wartberge (H.), pp.31-33; The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.96-97.

(35) Wartberge (H.), pp.31-32.

(36) Ibid, pp.32-33.

(37) Ibid, pp.33-34.

(38) Wartberge (H.), pp.34-36; The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.97-98.

(39) The Galician-Volynian chronicle, pp.82-83; Plakans (A.), pp.50-51.

(40) Wartberge (H.), pp.34-35; The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.98-101.
(41) Wartberge (H.), pp.35-40; Turnbull (S.), pp.18-20.
(42) The Galician-Volynian chronicle, pp.89-91.
(43) The Galician-Volynian chronicle, pp.82-83; Turnbull (S.), pp.18-20; Plakans (A.), p.46.
(44) The Galician-Volynian chronicle, pp.94-95; The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), p.110.
(45) Wartberge (H.), pp.43-45, pp.; The Galician-Volynian chronicle, p.95.
(46) Wartberge (H.), pp.46-67.
(47) Ibid, pp.47-48.
(48) Ibid, pp.49-50.
(٤٩) مرجع سابق، ص.٤١٤.
(50) Wartberge (H.), pp.50-51.
(51) Letter No.2 (Gediminas to Pope John XXII, 1322), ed. by Klimas (A.), Skrupskelis (K.), (1969), in (Lithuanian quarterly journal of arts and sciences, Volume 15, No.4), Available at http://www.lituanus.org/1969/69_4_02.htm, Acceded on, 02/15/2017.
(52) Letter No.3 (Gediminas to the citizens of Luebeck, Sund, Bremen, Magdeburg, Cologne, and other cities, January 25, 1323), and Letter No.4 (Gediminas to the citizens of Luebeck, Rostov, Sund, Greifswald, Stettin, and Gotland, May 26, 1323), and Letter No.5 (Letter of Gediminas to the monks of the Dominican order, May 26, 1323), and Letter No.6 (Gediminas to the monks of the Franciscan order, May 26, 1323), ed. by Klimas (A.), Skrupskelis (K.), (1969), in (Lithuanian quarterly journal of arts and sciences, Volume 15, No.4), Available at http://www.lituanus.org/1969/69_4_02.htm, Acceded on, 02/15/2017.
(53) Letter No.2 (Letter of Gediminas to Pope John XXII, 1322), ed. by Klimas (A.), Skrupskelis (K.), (1969), in (Lithuanian quarterly journal of arts and sciences, Volume 15, No.4), Available at http://www.lituanus.org/1969/69_4_02.htm, Acceded on, 02/15/2017.
(54) Ibid.
(55) Wartberge (H.), pp.50-51; The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), p.123.
(56) Wartberge (H.), pp.59-6; The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.124, 127, 129.
(57) The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.137, 140, 152, 155, 156; Wartberge (H.), pp.64-65.
(58) The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.137, 140-141; Wartberge (H.), p.65.
(59) Wartberge (H.), pp.66-67.
(60) The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, (1914), pp.156-157; Wartberge (H.), pp.95-105.
(61) Marburgensis (W.), (1842), Chronicon seu Annales, (Poznan), pp.202-203; The Chronicle of Novgorod, 1016-1471, pp.158-159; Mickunaite

(G.), (2006), Making A Great Ruler, Grand Duke Vytautas of Lithuania, (Budapest), pp.19 -20.

(62) Marburgensis (W.); p.203; Mickunaite (G.), p. 20.

(63) Marburgensis (W.); pp.203-204; Mickunaite (G.), pp. 20-21.

(64) Forst (R.), (2018), The Oxford History of Poland-Lithuania, *vol.1 (The Making of the Polish-Lithuanian Union, 1385-1569),* (Oxford), pp.3-4; Wandycz (P.), (2005),The price of freedom, *(A History of East Central Europe from the Middle Ages to the present),* (Taylor & Francis e-Library, London), p.38; Plakans (A.), pp.66-78.

(65) Stone (D.), (2001), The Polish-Lithuanian State, 1386–1795, (University of Washington press), pp.3-6; Wandycz (P.), p.38; Forst (R.), pp.4,102.